عمر بورنـــان

الهلوســـة
في اللّغة والأدب

منشورات مخبر الممارسات اللغوية
جامعة مولود معمري - تيزي وزو-

الإيداع القانوني: 1095- 2010
ردمك:1 - 2871- 0 - 9947 - 978

الإهداء:

إلى الذين تكلموا فأفهموا، وصمتوا فعبروا،

فأراحوا الناس واستراحوا منهم...

مقدمـــــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل اللهم على نبيك محمد وعلى آله وصـــحبه وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله رب العالمين الذي رزق الإنسان العقل، وعلمـــه البيان، وألهمه الخط ليحفظ كلام جيل إلى جيل، فيـــستفيد اللاحـــق مـــن خبـــرة السابق، إذ يقلد الحفيد أجداده في صوابهم، ويجتنب أخطاءهم، وإلا لكان كل جيل يعيد تجارب الأجيال السابقة، ويدفع أثمانا دفعها ناس قبلهم، لعدم علمهم بما مر به سلفهم، إذ لم يكتبوا حوادث أيامهم، ولم يخلدوا بالكتابة مغـــامرات خاضـــوها ومشاكل تغلبوا عليها لما أحسنوا، وأخرى قضت عليهم إذ أساؤوا، ولولا الكتابة لما بقي شيء من أخبارهم إلا ما حفظ عنهم بالروايـــة الـــشفوية التـــي غالبـــا ما يكتنفها التحريف فيزاد إليها، وينقص منها، إما لقلة الحفظ، وإما لاضـــطراب العبارة وسوء الفهم، وإما لدوافع شخصية ومصالح آنية. ولذلك كان القلم أصدق من اللسان في حفظ مسيرة جيل إلى جيل لإمكانية نظر الباحث في كتب ســـابقيه وكأنه يسمع منهم ولا ينتظر من يخبره، فيصبح الخبر المكتوب عيانا.

وكل شيء حدث اليوم وفي هذه الساعة بالذات: هبوب الـــريح، أو صـــرخة صبي أو خبر تناقله أهل القرية، أو سقوط قطرات من الأمطار، أو شجار حدث، أو كلب لاحق قطا فانتبه له الصبية وانشغلوا به عن درس معلمهم، أو كلمة قالها أحمق فضحك منها الناس وكرروها أو نسوها في الحال، أو أي شيء أهم ممـــا ذكـــرت تمثيلا أو أحقر منه، وإن بدا في هذه اللحظة لا قيمة له فإنه بعد قرون لو يعرفه أهل ذلك العصر لاعتبروه اكتشافا كبيرا. والحقيقة أن الكتابة ليست رابطا بين أناس حال الزمن دون لقائهم فحسب، ولكنها رابط بين ناس حال المكان دون لقـــائهم أيـــضا، فالكاتب يكتب لينتقل كتابه إلى أقطار مختلفة فتصل أفكاره حيث وصل كتابـــه دون أن يحدث لقاء بين الكاتب والقارئ وإن كانا في عصر واحد.

ثم لما رأيت أناسا يعيشون في عصر واحد، وفي مكان واحد، ولا يمكن لهم الاتصال بينهم ويتعذر فهم بعضهم عن بعض لاختلاف العالم الوجداني الذي يعيشون فيه، ولما كنت أود من أحد الذين انتقلوا إلى ذلك العالم أن يقيم جلسة يمكن تسميتها محاضرة، ويمكن تسميتها لقاء صحفيا، ويمكن تسميتها ملتقى، وعلى كل حال لا يهمنا اسمها والمهم أن يقيمها ويفهمنا بعض مبادئ ذلك العالم ويصف لنا أهم حدائقه... ولما كان الإنسان محتاجا إلى فترة هذيان كما أنه محتاج إلى فترة تفكير عميق، والحالتان متكاملتان لا تفضل إحداهما الأخرى، لأن الاستمرار على وتيرة واحدة يفضي إلى انهيار الأعصاب، وتذبذب الأفكار.

وحفاظا على الصحة النفسية للفرد، وصيانة لمؤهلاته العقلية وقدراته الذهنية، عليه أن يطلق لنفسه العنان أحيانا، ويسمح لها بزيارة حدائق الجنون. ولا تكن مشمئزا من ترك نفسك تزور حدائق الجنون، لتصورك إياها تصورا خاطئا نظرا لما سمعت كثيرا من الناس يقولونه عن هذا العالم العظيم. وليكن في علمك – من الآن فصاعدا – أن هذا العالم يحتوي على جانب من جوانب **حقيقة** الكون التي لم يدركها الناس إلى يومنا هذا، ولكن ناسا ذهبوا من بيننا فولجوه ليلقوا عليه نظرة سريعة ثم يعودوا إلينا، فأعجبتهم أزهاره ذات الألوان الزاهية، وبناياته النقية النظيفة الطاهرة، وأبهرتهم دقة تسيير أهله لإدارة مؤسساتهم، وحسن اختيارهم لموظفيهم، واندهشوا أمام براعة مهندسيهم في شق طرقات مدينتهم، ورسم مسالك مياهها، فبقوا هناك ولم يعودوا إلينا ليخبرونا عما رأوه علنا نجلب إلى عالمنا شيئا من تلك الحضارة الراقية إن استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ولما طال بي الانتظار، وكلما رأيت ذاهبا توسمت فيه الرجوع إلينا وجدته أكثر هجرا من سابقيه، شمرت على ساعدي، وأردت خوض هذه المغامرة بنفسي، ثم أكتب للناس شيئا– إذ الكتابة في بعض أشكالها حديقة من حدائق

الجنون– فيتسنى لهم السماح لأنفسهم المتعبة من مشاق البحث والتنقيب بزيارة حديقة من هذه الحدائق الرائعة، وأضع لهم كتابا يقرأونه أثناء زيارتهم يعوضهم عن كتب الفلسفة واللغة والأدب، فصنفت هذا الكتاب ووسمته بـ"الهلوسة في اللغة والأدب".

أسباب وظروف تأليف الكتاب:

ألفت هذا الكتاب لما بدأت قواي العقلية تنهار، وقدراتي الفكرية تتراجع إلى الوراء خطوات معتبرة، وهدفي من تأليفه أن يجده قارئ مبتدئ لا يفرق بين جيد الكتب ورديئها في مكتبة من المكتبات فيشتريه، فأكون بذلك قد أنهكت قدرته الشرائية – بالمصطلح الاقتصادي الحديث – التي لم يصدق أنها مكنته من شراء كتاب، فيفاجأ عند وصوله إلى البيت أنه لم يزد على أن اشترى كومة من ورق، وشيئا من هلوسة شخص رفع عنه القلم، وهنا أكون سعيدا أني أعطيته درسا قاسيا يتعلم من خلاله كيفية شراء الكتب، وعليه مستقبلا عند شراء كتاب، أن يقف نصف ساعة متفحصا أوراقه قبل الإقدام على شرائه، فلا يعتقد بعد وقوعه في هذه الخديعة التاريخية أن كل ورق عليه حبر كتاب، ولي هدف آخر أسمى من الهدف الأول، وهو طموحي في أن يوضع عنوان كتابي هذا مع عناوين كتب أخرى في المكتبات الجامعية، والوطنية، فأتعب به الباحثين المبتدئين الذين يقرأون كل العناوين المفهرسة في المكتبة. وقد يكون عنوانه يشبه موضوع بحث بعض الطلبة المبتدئين فيسجل عنوانه ورقمه ويطلبه من أمين المكتبة، ثم يضعه في محفظته، ويتجه به نحو بيته لينجز بحثه، وعند تصفحه هذا الكتاب، يكتشف أنه ضيع يوما كاملا لاختياره إياه، وهنا أكون قد علَّمت هذا الطالب وأمثاله أن الباحث يأخذ معلوماته من كثرة مطالعته للكتب، فإذا كلف ببحث عرف المظان التي يعود إليها اعتمادا على ما قرأه في أيام

وليالي فراغه، ولا يصل إلى المعلومة من خلال العنوان فقط! فكم من عنوان لا يدل على كل ما احتواه الكتاب! فإنك لما تسمع بكتاب عنوانه الحيوان، فإنك لا تعتقد – لو لم تكن اطلعت على الكتاب – أن به دراسات نقدية، وآراء لسانية، إضافة إلى آراء فلسفية، وأخبار أدبية. وإنما الظاهر أنه كتاب يتحدث عن القط والأرنب والحمار والثعبان والثعلب والبعوض والذباب وما إلى ذلك من هوام الأرض وحشراتها.

وقل لي بربك، هل تستطيع أن تحدد موضوع كتاب عنوانه "الكتاب" لولا شهرته بين الناس، وجريان ذكره على ألسنتهم؟

ولي هدف أسمى من الهدفين السابقين، وهو أن يقع هذا الكتاب بين يديّ رجل قليل العلم فيظن أن ما فيه حق وصواب، ثم يقع بين يدي رجل ناقد متفحص عالم، فينتبه من أول كلمة إلى خطأ أو خطأين، فتحثه الروح النقدية فيحضر ورقة وقلما، ويستفرغ جهده لنقده، وكلما قرأ، توالدت الأخطاء والهفوات بشكل مذهل، إلى أن يجتمع لديه حجم الكتاب مرتين، فيرى أن هذا الكتاب ليس من الكتب التي يزداد ناقدها رفعة بين أهل العلم لكثرة سقطاته، وإنما الأعمال القيمة هي التي تجلب لناقدها رفعة وشهرة، فيرمي أوراقه التي بذل جهده في تحريرها، وأسهر عينيه لجمعها، وأسلَمُ أنا – عندئذ – من توبيخه لي على أخطائي، وهو لا يعلم أني كتبته عندما رُفع عني القلم، ولذلك قلت ما شئت، وعندما حاول نقدي **رفع عني قلم نقده دون أن يشعر أن ذلك من البركات التي رزقني الله بها**، ويبقى الرجل الذي صدق كلامي مصدقا إياي دون أن يصله تنبيه من أحد، ولله الحمد والمنة على غفلة الجاهل، وتكبر العاقل على إظهار الحق إلا إذا كان له فيه رفعة وسمعة!

وأحلم بأن أدرج في كتاب الميداني مع أمثال أسماء التفضيل، وهـذا أول أهدافي التي أبتغيها من تأليفي هذا الكتاب وأسماها، والحمد لله الذي فضل بعض خلقه على بعض.

مميزات الكتاب:

حتى يكون الكتاب مشوقا، وللهذيان صالحا، عملت على الالتزام فيه بمميزات قل أن يتميز بها كتاب:

- **أولا:** التطاول على العلماء ونسبتهم إلى الجهل والسهو والخطـأ، دون دليل مقنع ولا حجة يرجع إليها، فعالم الجنون لا يعترف بالعلماء ولا بحججهـم، وإلا لما اختلف عنهم، ولما كانت له ميزاته الخاصة، وتقاليده العريقة. وحيثمـا رأيتَ شخصا متصفا بهذه الميزة – أقصد التطاول على العلماء – واضعا نفـسه في مكان لم يبلغه ولن يبلغه، فاعلم أنه زار أروع حديقة من حـدائق الجنـون أو أنه سيزورها عما قريب، ولن يرجع من هناك إلا محمـولا علـى أكتـاف الرجال الأشداء.

- **ثانيا:** بعثرة الأفكار، وترك أهمها من أجل أحقرها، وذلك حتى ينـساق الكتاب مع موضوعه، ويتسق مع عنوانه، ويكون بتأديـة دوره جـديرا. كمـا اختصرت ما يجب فيه التفصيل، وفصلت ما يغني فيـه الاختـصار، فـشرحت الواضح، وأبهمت الغامض. وهذه المنهجية – وإن كنت قطفتها من حديقة مـن عالم الجنون – إلا أنني وجدت بعد عودتي أشياء كثيرة في هذا العالم تـشبهها، فأصبت بالخيبة، وأحسست بالحسرة، وآلمني الحزن، وعانيت من آثار الأسـى أياما وأسابيع. وشعرت شعور العالم الذي أفنى حياته في البحث عن معلومة فلما توصل إليها وجد عالما آخر قد سبقه إليها بسنوات والله المستعان.

وجدت أنه لا ينظر إلى الكلام في هذا العالم ولكن ينظر إلى المتكلم، فيثنى على كلام الغني صاحب المناصب العليا وإن كان في كلامه خطل، ويذم كلام العاقل الفقير، وإن كان كلامه حبات من درر. ولكن في ذلك العالم النزيه لا يُعترف بالمال ولا بالمنصب؛ والمهم عندهم أن يكون كلاما فيه جنون، وأعترف أني لم أستطع التفرد بهذه الميزة لاشتراك العالمين فيها.

– **ثالثا:** التزمت في هذا الكتاب مبادئ منها استعمال الدليل في غير محله، وعدم الثبات على رأي واحد، والإكثار من التكرار حتى أملأ الأسطر والصفحات دون أن آتي بشيء، إذ الهدف من الكلام هو أن أشعرك بأنك تقرأ هذيانا، ومنها الإعجاب بكلامي لأنني لا أسمع كلام غيري ولا أريد أن أسمع كلامهم، والاشمئزاز من النقد، والإصرار على الخطأ حتى لا يقال عني أنني جاهل، ومنها سرقة أفكار غيري سواء سمعتها منهم مشافهة أو سمعت أنهم سينشرون شيئا في الموضوع. وإني لأحس بأقصى درجة الذكاء لتميزي بهذه الصفة ثم أجد أناسا بعد نشري أفكار غيري ينسبونها إلي ويأخذونها مني، ومنها تميزي بالبخل فإذا وجدت فكرة لأحد كبار الأدباء أو إذا عثرت على نادرة من نوادر أحد جهابذة اللغة والأدب، نسبتها إليه ولم أشر إلى المصدر الذي أخذتها منه حتى لا يسرقها أحد مني فتنطلي علي حيلة من حيلي، وحتى يبقى الفضل لي في اكتشافها فينسب إلي، ولم أسرقها من مكتشفها الأول لأن ذكر اسمي بجانب اسمه شرف لي يضاهي شرف اكتشافي لها، ثم إني أعلم أن الناس سيكتشفون سرقاتي فألام وينكشف أمري، فعملت على إيجاد بعض من يصفني بالأمانة العلمية وهذا سيدافع عني ضد من يكتشف بعض سرقاتي.

وتبقى بعض الصفات الأخرى، والحيل المبثوثة في هذا الكتاب لا أذكرها، بل أتركها لتكتشفها بنفسك، وإنما ذكرت هذه لأدلك على تلك، ولم أحصها حتى

أبقي فيك رغبة البحث التي ستدفعك حتما لقراءة الكتاب كله، بحثا عن حيلي الخبيثة، وهذه حيلة أيضا انفلتت من بين يدي.

أصدقك القول فاصدقني الاستماع:

عندما خطر ببالي دخول حدائق الجنون، والتنزه بمظاهرها الجميلة، والتمتع بألوان أزهارها ذات الروائح الطيبة، وقررت الاستفادة من خبرات أهلها، والاطلاع على علومهم، وتصفح كتب علمائهم الأفذاذ، وعزمت على كشف أسرار طالما أزعجتني نهارا، وهزت جسمي المتثاقل ليلا، ولما أخلصت النية لإفادة أفراد عالمي المتواضع بما أراه هناك في ذلك العالم المحفوف بالأسرار الكثيرة، المختفي خلف أسئلة مازالت إلى حد الآن دون جواب شاف كاف مقنع. عند تراكم هذه القوى في داخلي، أخذت ملابسي الرثة التي لا أحتاج إليها إلا في مواقف تجبرني على التنكر، واصطحبت بعض الوثائق المزورة لأحدد بها هويتي المزورة أيضا؛ ثم اتجهت نحو بوابة الحديقة، فوجدت هناك حارسا ما إن رأيته ورآني، حتى أغمض عيني بشيء لست أعرف على وجه التحديد ما هو، وأدخلني إلى قاعة بها لجنة عرفت أنها **موقرة** دون أن أراها أو أن أتحدث مع أفرادها، ذلك أني ألفت وصف اللجنة بالموقرة، ولم أسمع في حياتي لجنة غير موقرة حتى ارتبطت لدي الكلمتان في ذهني، وأصبحت لا أفرق بينهما، ولعل ذلك ساعدني لأن أكون مهذبا مع تلك الموقرة عفا الله عني وعنك. وابتدر رئيس اللجنة المحترم – طبعا – بإلقاء كلمات تطمئنني على حياتي، وتبحث عن دوافع مغامرتي، فشعرت في هذه اللحظات بموقف المريد الصوفي عندما يعزم على أن يصبح قطبا ويبدأ مسيرته بزيارة شيخ جليل. فقلت: لعل عالم الجنون يخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الصوفية، ولعل هذا الرئيس المحترم قطب من أقطاب المجانين. فإني منذ أن كنت صغيرا أحدد

مواقفي تجاه المقامات حسب معلوماتي السابقة، ولم أدر كيف انطلق لساني فقال: أيها الشيخ الجليل، والقطب النبيل ذو الوجه الجميل، والقد الأسيل، والخد الوبيل، عرفتك بالشيخوخة عليلا، ومن الصيام نحيلا، ومن القيام كليلا، وأنك باق على عهدك، ومتمسك بنهجك، ولو أمات الله جيلا وخلق جيلا، وما أنا إلا أحد مريديك، لعلي أقتبس من نوركم، وأهتدي بهديكم، فلست أطمع في مسكن ولا مأكل كثيرا كان أو قليلا، فإن تكرمت علي، وأنزل الله في قلبك بعض إلهاماته أن تفك وثاقي، وتنزع عن عيني هذا الشيء المبارك، فأعجبه كلامي وعلم أني لست كأبناء عالمي، وكأنه اطلع على الاحترام الكبير الذي أكنه فعلا للمجانين، فمد يده التي لم أشم فيها رائحة المكر، مع أن أنفي حطم الرقم القياسي العالمي في شم روائح الجنح والجرائم، إلا أنه لم يشم في هذه اليد الممدودة إلي إلا ما يبشر بخير، وفتح ذلك الشيء الموضوع على عيني فوجدته حقا شيخا جليلا، وقال: لا يحق لأحد أن يرى ما احتوت عليه حدائقنا إلا بعد أن يجيب عن ستة أسئلة ولي ثلاثة شروط، ولك الحق في ثلاثة شروط، واحد بواحد على أن يكون لي البدء. فما كان لي من خيار إلا الموافقة.

❖ فقال: الشرط الأول: فشلك في الجواب عن سؤال واحد يعني أنك فاشل في الأسئلة التي بعده ولذلك ليس من الضروري متابعة الأسئلة.

❖ فقلت: وشرطي الأول: أن تطرح علي السؤال السادس، فالخامس، فالرابع، فالثالث، فالثاني، فالأول. فوافق ووافقت.

❖ فقال: والشرط الثاني: خطأك في ثلاثة أجوبة فأكثر يحرمك من زيارتك حدائقنا.

❖ فقلت: وشرطي الثاني: يعتبر جوابي بلا أعرف جوابا صحيحا. فوافق ووافقت.

❖ فقال: والشرط الثالث: ألا تجيب عن سؤالين مختلفين بجوابين متماثلين. فعلمت أنه أراد ألا يمنحني إلا فرصة واحدة للإجابة بلا أعرف. فقلت: وشرطي الثالث: أن يعتبر التماثل في اللفظ لا في المعنى. فوافق ووافقت.

❖ فقال: السؤال السادس: بم تنصح رجلا أراد أن ينتقل من عالمكم إلى عالمنا؟

❖ فقلت الجواب السادس: كنت عازما على الإجابة عن أسئلتك بلا أعرف، ولا أدري، والله أعلم وما أشبه ذلك، إلا أن سؤالك الرائع رغبني في الخوض في هذا الموضوع، نظرا لاهتمامي بهذا الميدان، وسعيي لمعرفة تفاصيله، واجتهادي للاطلاع على أسراره، ومثابرتي لكشف خباياه. لذلك، لا أتردد في تنصيب نفسي للإجابة عن هذا السؤال الدال على عبقرية مثيره، والذي سيدل أيضا على عبقرية المجيب عنه، ثم جلست جلسة المعتد بنفسه، الواثق من صواب جوابه، المفتخر بكلامه، المتكبر على أقرانه، المعجب بعلمه، وقلت: أنصحه بقولي: اعتبر نفسك منتقلا من أسوأ إلى أحسن، وأنك ستتخلص من كثير من المتاعب والتبعات والمسؤوليات، وأنك ستطرق باب الحرية الوحيد الذي لا يمكنك طرقه إلا من هذه الجهة، ثم عوِّد نفسك تجاهل القوانين الاجتماعية التي ألفتها منذ صغرك، واجعل مدح الناس لك وذمهم إياك سواء، ولا تأبه بمواقفهم منك سواء أرضوا عنك أم سخطوا عليك، ولا تفكر في مستقبل، ولا مشروع، ولا أبناء، ولا زوجة، ولا عائلة، ولا شيء مما يشغل فكر الناس، ويملأ أوقاتهم، ويتعبهم ليلا ونهارا. إذا أمكنك التوصل إلى هذه الدرجة فاعتبر نفسك حافظا ألف باء الجنون ولمَّا تصبح مجنونا بعد، وإنما يتحقق الجنون في القدرة على تطبيق ما تعلمته، وإلا لكان كل ما آمنت به حبرا على ورق، وهذا من مميزات عالمنا لا من مميزات عالم المجانين الذي تنشد

الوصول إليه. وعليك أن ترسم لنفسك جدولا، وتتبع برنامجا يوميا تعرض فيه على الناس جنونك، وتفصح لهم على تحديك لمبادئهم، ورفضك لعالمهم. وأنصحك أن تتدرج من الهزل إلى الجد، وأقترح عليك المراحل التالية:

❖ اليوم الأول: لا بأس أن تبتسم دون سبب من حين إلى حين، ولا يهمك أرآك الناس أم لم يروك، وإنما ابدأ التحدي بالابتسامة لما تحتويه من معاني الخير والرحمة والبراءة، ثم ألحق ابتسامتك بإظهار علامات التأسف على وجهك، والق أي كلمة، ومن الأحسن أن تكون في الأمور الكبيرة كالعلم، والفلسفة، والسياسة الدولية؛ لتفاجئ الناس المحتقرين لك بشيء لم يتخيلوه من أمثالك، ثم قم واذهب إلى أشرف الناس أمامك، وليكن حكمك عليه من خلال ملابسه، لا من خلال علمه وجيد كلامه، لأن هدفك مهاجمة أعدائك، لا الزراية على أمثالك، وقل له كلاما يذهل عقله ويجلب انتباه العامة نحوه، كأن تقول له: أريد أن أسألك سؤالا مهما، فسيقابلك بلطف ويقول لك: تفضل. فقل له: ما بالك تشارك الحمار في تنفس الهواء، وشرب الماء، والنوم ليلا، والاستيقاظ نهارا؟ ثم أنى للحمار أن يعرف كما تعرفون سيادتكم؟ فسيغضب ويضربك أو يهم، خاصة إذا كان وسط شخصيات معروفة تُكِنّ له الاحترام، وسمع قهقهة منبعثة من العوام المحيطين به، و«ويل للخواص من العوام»، وسيندفع ناس يدافعون عنك ويقولون: دعه؛ مجنون، مجنون. لتكن هذه الكلمة أحسن وصف أطلق عليك منذ أن عرفت الحياة. وحتى لا تتعرض لمتاعب كثيرة، انصرف بهدوء انصراف المستهزئ من عالم لم يره صالحا للبقاء، وعد إلى بيتك وأنت تتذكر أنك وصفت لأول مرة بمجنون.

❖ في اليوم الثاني: وبعد أن حزت على أول وسام شرف، لا تكن مستعدا لأن تضيعه وتصبح سخرية للبشر، وعليك أن تنزع عنك لباس الأناقة

وتبدله بلباس يميزك عن العالم الذي سئمت منه ومن أهله، ولتكن إحدى مقاهي قريتك هي الوجهة المفضلة لديك، لتجلس منفردا، وانصت جيدا فستسمع من يعرفك يشيرون إليك ويقولون: هذا فلان، مسكين جن. إياك أن تتأثر بهذه العبارة وتحس بالشفقة على نفسك، بل عليك أن تقول في نفسك: مساكين، مازالوا لم ينتبهوا لروعة العالم الذي أنشد الانخراط فيه، ثم استمع إلى حديث أقرب الجالسين إليك وتدخَّل فيما لا يعنيك، ولا تظنن نفسك وحيدا في هذا التصرف، **ولكن ناسا كثيرين تدخلوا فيما لا يعنيهم فنجحوا**، وأجب عن أسئلة لم تطرح عليك، ولتكن إجاباتك بعيدة عن الصواب، لأنك مازلت ضمن مرحلة الهزل، كأن تجيب عن سؤال أحدهم لصاحبه عن العرس الذي سيقيمه قريبا لابنه المدلل، بقولك: آه، من لم تنفعك حياته فموته عرس. ثم أنشد قول الشاعر:

أفاطم إني هالك فتبيني ** ولا تجزعي، كل النساء تئيم

هذا ما نصحتك به بلساني لا لتعيده حرفيا، ولكن لتنسج على منواله بلغتك، وعلى حسب ما يقتضيه المقام المحيط بك، فإن كنت أمازيغيا، أو فرنسيا، أو ألمانيا، أو مصريا، أو غير ذلك، فعبِّر على حسب لسانك ليفهم عنك مستمعوك، ويتطيروا من شر ما بشرتهم به. ولا بد من أن يكون بجوارك شخص ثاقب الفكر يفهم كلامك فهما دقيقا؛ ولذلك، لا تعجب من تلقيك تحليلات لحالتك النفسية، أبسطها يتلخص في رأيين اثنين: الرأي الأول يقول بأنك مجنون ويدعو لك أصحابه بالشفاء، والرأي الثاني يجزم أنك مدع للجنون، ودواؤك عند أصحاب هذا الرأي ضربات موجعة بغصن زيتون على ظهرك، أو بسوط مبلل بين كتفيك العاريين.

لتكن هذه الحالة مدعاة لسعادتك ما دمت ناجحا في إثارة الجدل وجلب الانتباه، لتكن نظرتك إلى ناقديك نظرة استهزاء وتهكم، ولتعلن أحاسيسك تجاههم

بابتسامة تزعجهم وتزيدهم حيرة، وتبعدهم عن حقيقة حالتك النفسية. ولتعلم أنك وإياهم في حالة غريبة جدا، إذ أنك تنظر إليهم من أعلى إلى أسفل السافلين، وهم أنفسهم يرونك هويت من عندهم إلى مكان سحيق. وما عليك إلا أن تتذكر في كل لحظة، وفي كل حالة، وفي كل مكان، أنك انتقلت **من إنسان إلى مسألة** أو من جسم إلى رمز، وهذا نصر مبين قلَّ من يعرف قيمته فضلا على أن يحققه.

يكفيك هذا القدر من النتائج في يومك الثاني، لأنني أخشى عليك أن تتعرض للضرب من قبل أناس لست أدري طبيعة تفكيرهم، ولذلك أنصحك بالانصراف وقضاء يومك وحيدا، وعند غروب الشمس، تأخر عن موعد دخولك البيت. سيصاب أهلك بالقلق ويهرعون للبحث عنك، وستتسرب إليهم أخبار من الذين رأوك في المقهى تفيدهم بشأن حالتك النفسية، ثم عد إلى البيت في حالة تميزك عن العالم الذي أنت بصدد الفرار منه، وبذلك تكون قد أشعرت أهلك كما أشعرت سكان قريتك بشيء سيتحدد لديهم بمرور الزمن.

واعلم أنك ستواجه مشاكل كبيرة في اليوم الثالث وما بعده، وتنفلت الأمور من يديك، وعليك أن تحسن التصرف حتى لا يكون آخر مشوارك مخالفا لأوله. سيبادر أهلك بأخذك إلى بعض الكهان، ومن حسن حظك إذا اشترط عليهم ذبح ديك أسود وطبخه كاملا وتقديمه لك في وجبة عشاء، لترفض تناوله في البداية حتى يظنوا أن الجن الذي حل بك يخشى تميمة العراف، ثم كلْه جملة وتفصيلا. لتعلم أن فلسفة جعلت الناس يضحون بديك ذي صفات خاصة ليفدوك من قبضة الجن – هدانا الله وإياهم – لحرية أن تتبع.

واصل على هذا المنوال، ومن يدري؟ فقد يؤمر لك في المرات القادمة بأكلات أحسن من الدجاج المشوي، ولكن لا يكن هذا الطمع مسيطرا عليك، ولكن **دع الجنون يأتي بثمراته**. وليكن ديدنك مضاعفة إظهار الجنون كلما

أخذوك عند طبيب أو عراف، حتى ييأس الجميع من منعك من مواصلة مشروعك.

بعد أن يعرف الجميع جنونك ويعترفون به، لا بأس أن تستلقي في شارع من شوارع المدن الكبيرة بين كومة من الأشياء التي جمعتها من أماكن مختلفة: خبز ألقى به أثرياء البشر، ولعبة صبي قديمة، وقطعة غيار وجدتها ملقاة في الطريق، وبعض الفواكه التي حصلت عليها من البساتين المجاورة، كل هذا الشتات استطعت أن تجمع بينه وتضعه في كيس واحد ثم تضع نفسك بجانبه متواضعا غير متكبر، معتبرا نفسك شيئا منها أو أنك ستصبح في وقت ما شيئا مثلها، **وكل من مر بك، من رجال أشداء، وفتية أقوياء، وفتيات حسناوات، كلهم مآله إلى ما آلت إليه أشياؤك التي تعرضها عليهم، ولكن من يفهم رسالتك ومن يحاول أن يفهم!**

وأنت على هذه الحال، يمكنك أن تجول بخيالك وتطلق العنان لأفكارك، كأن تفكر في وزن السلع التي يحملها الناس في أيديهم، وكم شاحنة تلزم لحملها لو جمعت في مكان واحد؟ أو أن تفكر في مجموع المال الذي في جيوبهم جميعا، وكيف تصبح سلطانا عظيما لو جمع وأصبح ملكك وحدك. وباستمرارك في هذا التفكير، تبدو حالتك تثير الشفقة، كما تبدو أفكارك هذيانا فكريا ناتجا عن مرض نفسي، لكني أشجعك وأقول لك: أنت عبقري، طالما وصلت إلى هذا التفكير العظيم. ثم اجلس وتخيل نفسك صاعدا نحو السماء، وفجأة شعرت بسطحها قد لامس أعلى رأسك ثم فتحت لك، فوجدت هناك أمرا عجيبا، أو تخيل أن الناس قد نزلت بهم صيحة فماتوا كموت رجل واحد ولم ينج من هذا العالم إلا أنت، وبقي العالم كله لك، فبدأت تعيد بناءه بشكل يتماشى مع ما تراه صوابا. أو تخيل أن الناس كلهم بحجم النمل وأنت بحجمك الحالي، فإنك ولابد في هذه

الحال أن تكون أقوى رجل في العالم، وأطلق العنان لخيالك لتعيش سعيدا، تخيل أن الكائنات تعزف وتصفق لك، ثم أوقف جميع حواسك ولا تدع شيئا يشغلك عن إيمانك بأن الجمادات تحبك وتعزف من أجلك، فإذا تحققت لديك هذه الفكرة فإنك ستسمع أروع ما يمكن أن يعزف، ولن تشعر إلا وأنت تهتز طربا راقصا على تلك النغمات، غير مبال بالفوضى التي يحدثها البشر، إذا وصلت إلى هذا الحد من الجنون، وتكررت مثل هذه الظواهر عندك مرات كثيرة، والتزمت بفلسفة واحدة، كأن تعتبر بعض الكائنات مغنيات وبعضها شاعرات وبعضها عازفات، واعتبرت كل البشر مفسدين لهذا العالم الذي آمنت به، فإنك لن تحتاج بعد هذا إلى نصيحة مني، ولا يمكنك أن تفكر في العودة إلى عالمنا هذا. غير أني أحذرك من أن تتخيل خطرا سيحل بك، أو وحشا سيفترسك، أو موتا سيصيبك عما قريب، وما شابه ذلك من الوساوس، لأن هذا النوع من التفكير سيضعف شخصيتك ويقلل من قيمتك.

السؤال الخامس: تخيل مجنونا وصفه شكلا ومضمونا.

الجواب الخامس: أتخيله أشعث أغبر، كث اللحية، ممزق الثياب، في أصبعه حلقة من حديد قد آلمته وكادت تمس عظم أصبعه، ملقى على الرصيف، واضعا حذاءه موضع الوسادة، وقد ألقى على جسمه غطاء يتلاءم مع حقيقة الحياة. أتخيله – لما عرف أنه في عالم مصيره إلى الزوال– اختار للحياة ما يلائمها، إذ لم يستعمل جديدا، ولم يأكل لذيذا، ولم يتعب أعصابه، ولم يحرك أفكاره، ولم يعرف قلقا، ولم يبد انزعاجا. أتخيله رأى ما لم يره الناس، وسمع ما لم يسمعوه، ففهم ما لم يفهموه، وتعلم لغات الأشياء التي لم نظن يوما أنها ناطقة، فكلمها وكلمته، وأحبها فأحبته، إذ أنه أصبح يتنقل بين أصدقائه من حجر وشجر. لأنه لم يعش ليستغل الأشياء ولكنه عاش ليفهمها، غير أنه يكثر من

التأويل: إذا رأى حجرا، ظنه صامتا خوفا من الموت والانعـدام والانقـراض، فيجلس أمامه ويعزيه بكلمات طيبة ويقول له: لا تحزن أيها الحجر طالما كـان الموت يمس كل الكائنات، فإنه إن أصابك مكروه قبلنا فإننا لا نلبـث أن نلحـق بك، وإن أصابنا مكروه قبلك فإنك لا تلبث أن تلحق بنا! فالموت الذي يفرق بيننا سيجمعنا من جديد. لا تحزن أيها الحجر، لن نترك شيئا نخشى عليه بعد موتنا، فأنت حجر وأنا مجنون. ولم أفعل وإياك جريمة نخشى على أنفسنا من عاقبتها. لا تحزن، طالما يسوى بين المخلوقات في لحظة مغادرتها الدنيا، لا تحزن أيهـا الحجر فإنك كنت لبنة بناء ولم تكن يوما في ما يضر الخلق إلا مكرها، ليتنـي أيها الحجر كنت بريئا مثلك، ليتني لم أطلق لساني في قول الباطل وأمسكه عـن قول الحق، طبت أيها الحجر وطاب صمتك... ثم يمد يده ليمسح علـى الحجـر وإذا بدموعه تذرف من عينيه... ثم يستدرك ويقول: لعلي لم أحسن الظن بهـذا الحجر، ومن أدراني أن الحجر قد صمت خوفا من الموت، أوليس الحجر أشجع مما تخيلت؟ والله، لقد ظلمته ظلما عظيما، واتهمته بصفة ذميمة، **فلسعت الحجر حيث لا يضع الراقي أنفه!** لعل الحجر في حالة تفكير في شأن من شؤونه، وهو الآن مشغول البال عن الكلام، وقد أكثرت عليه، وويل للشجي من الخلـي. ثـم يصمت قليلا ويقول: يا لحماقتي، من قال أن هذا الحجر صامت، ألا يمكـن أن يكون له صوت إلا أن حاسة السمع الإنسانية لم تؤهل لاكتشافه؟ ثم يجهد نفـسه ليجد لديه حاسة غير السمع ليصل إلى معنى ما يقوله له ذلك الحجر. وهيهـات لمجنون أن يفهم لغة حجر... ثم يسمع أصواتا كثيرة منبعثة من مركز الحجـر، فيظنه يسرد عليه نكتا فتجده مشدوها يطيل النظر تجاهه مقهقها من حـين إلـى حين، وعندما يعلم أن هذه النكت ما هي إلا وساوس، وكل ما تـصوره بـشأن الحجر ليس له في الحقيقة من وجود، عند وصوله إلى هـذه الدرجـة يجهـش

بالبكاء وينصرف، غير أنه يبقى في شك من أمره، ولذلك سيعود يوميا إلى مكانه ليعرف حقيقة ما اعتقده حقا، ثم ظنه باطلا، ثم التبس عليه الأمر. سيبقى ملازما صديقه الحجر الذي أمن شره، وأودعه سره، وتأكد أن حجرا خير من بشر. كذا تخيلته ملازما ومصادقا ومخلصا ومحاورا لحجر، إلا أنه قد يفعل مع شجرة، أو مكان، أو طريق، أو بركة ماء، أو واد، أو ربوة، أو قبر، أو أي شيء مما يمكن أن يعثر عليه في قريته، ما فعله مع الحجر مع إخلاصه له ولزومه إياه.

السؤال الرابع: ما الفرق بين عالمكم وعالمنا.

الجواب الرابع: يتبين الفرق بين عالمكم وعالمنا في نقطة واحدة تفضي إلى ما لا حصر له من الفروق أبسط فرق منها يباعد بين العالَمين بعد المشرق والمغرب، وأم هذه الفروق هي **المصلحة الشخصية** التي يعتمدها أفراد عالمنا معيارا للتصرف، ولذلك تجد الفرد عندنا يفضل شخصا على شخص، ويوما على يوم، ومكانا على مكان، وشيئا على شيء، وفعلا على فعل، وقولا على قول. كل ذلك يعود في حقيقة الأمر إلى وجود مصلحة عند شخص أكثر من غيره، وتحققها في يوم أحسن من سائر الأيام، أو في مكان دون بقية الأماكن، وقس على ذلك البقية الباقية. ومن هنا تبدأ العصبية، والمحاباة، والتملق، والطمع، والحسد، والبغض، والحقد. فإن لم تنفع لجأ الفرد إلى الكذب، والغيبة، والنميمة، والمكيدة، والافتراء، والقذف، وكل صفة من هذه الصفات تلد العشرات من المفاسد. بينما عالمكم لا يعرف أفراده المصالح، ولا يعملون على تحقيقها. ولذلك لا يفرقون بين الأماكن، ولا بين الأشخاص، ولا بين الأزمنة، ولا بين الأشياء. فيتولد على هذه الخلة الحميدة الرضى والقناعة والعدل والعزة والصراحة...

السؤال الثالث: أنشدني شعرا كتبه علماؤكم لنا أو عنا.

الجواب الثالث: في الحقيقة أن أسئلتك توقض أفكاري النائمة، وتدفعني دفعا قويا للإجابة عنها، لما تحمله من تشويق، وهذه الفكرة – أي تتبع كلمة مجنون في كلام العرب: نثرا كان أو شعرا – لم تخطر لي يوما على بال لأبحث فيها وأسجل في جامعة من جامعات العالم بحثا أكاديميا أعالج فيه هذا الموضوع، لكن سؤالك هذا منحني الفرصة لأتكلم باختصار عنه، ولعلي سأتطرق إليه لاحقا بشيء من التفصيل إن شاء الله.

فأقول: بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

اعلم رحمك الله، أن كلمة مجنون ذكرت بصيغتين اثنتين في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعا، الصيغة الأولى: مجنون، والصيغة الثانية: به جِنَّة، وكلها منسوبة لنبي أو رسول أو منفية عنهما: والرسل الذين وسموا بالجنون وأخبرنا الله عنهم في القرآن الكريم هم: نبينا محمد[1] وموسى[2] ونوح[3] صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وهذا ليس معناه أنه لم يوصف غيرهم من الأنبياء بالجنون بل إن جل الأنبياء رموا بتهمة الجنون، قال تعالى في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ الذاريات 52.

أما الناس فجلهم – بما فيهم النقاد والشعراء – ربط بين الجنون والحب، لذلك سمي بعض الشعراء المفرطين في الغزل مجانين، قال مجنون ليلى:

وماذا لهم لا أحسن الله حفظهم ** من الحظ في تصريم ليلى حباليا
ومن أجلها سميت مجنون عامر ** فداها من المكروه نفسي ومالياً

1- الحجر: 6. الصافات: 36. الدخان: 14. الطور: 29. القلم: 2، 51. التكوير: 22. الأعراف: 184. المؤمنون: 70. سبأ: 8، 46.

2 – الشعراء: 27. الذاريات: 39.

3 – القمر: 9، المؤمنون: 25.

وهذا مذهب معروف، لا أحتاج إلى الإطناب في شرحه، غير أني أظن أن أول من استعمل كلمة مجنون في الشعر العربي – بشيء من التحفظ، وللمحققين المختصين النظر في هذا الاجتهاد – هو سرية الفزاري في قوله:

يا صاحب الرحل توطأ واكتفل
واحذر بدغنان مجانــين الإبل
كل مطار طامح الطرف رهل
ألزمه الراعي صرارا لا يحل

وتنسب لابن ميادة.

وذهب بعض الشعراء غفر الله لي ولك ولهم، إلى الاستهزاء والــسخرية من المجانين والعياذ بالله من السخرية مــن خلــق الله؛ قــال أحمــد الكاشــف (1295– 1367هــ):

في قريتي كان فتى مجنون يضحك من أحواله المحــزون
كأنه القرد إذا ما يطــرب والأرنب الوحشي حــين يــثب
فظنه قــوم ولــيا هــاديا يكتشف الغيب ويــدني الــنائيا
ويعلم الواقع والمستقــبلا فاتخــذوه مرجــعا ومــــوئلا

وما ذنب المجنون أن ظنه القوم كاهنا؟ هلا هجاهم دون المجنــون؟ لقــد أخطأ الشاعر خطأ فادحا، فسقط من عين النقاد المنصفين أمثالي، ووضع نفــسه في مرتبة أدنى مما تليق بأمثاله، ووصل إلى المعنى ولم يحسن التعبير عنه، إذ حمل البريء ذنب المذنب، وخالف قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. بيد أن بعض الشعراء المنصفين اعتبروا الجنون السبب الوحيد للسعادة، قال ابن سناء الملك (545– 608هــ):

واترك العقل جانبا تدرك الحــظ ** يقينا ما الحظ إلا الجنـــون
كل من أبصرته عيناك في الخلــ ** ــق سعيدا فإنــه مجنــون

ثم أخذ هذا المعنى عنه أبو بكر التونسي (1307هـ- 1368هـ) فقال:

كل من أبصرته عيناك فـــي الخلــ ** ق سعــــــيدا فإنه مجـــنون
حتى اذا ما ملت عنهم نحــو مــن ** يملي علي جنونه حســـدوني
لبيــك يا مجــنون يا هذا الزميــ ** ل ومنصفــي مما به وصموني
ما للـــخلائق يسخرون بنا وهــم ** لو انصفوا لثموك أو لثموني
فأجابني هم يعملون بلا هــــدى ** ويرون لا بقلوبهم بعيـــون
ويقدسون جسومــهم ومذيقـــها ** عيش الخليع وراحــة المفتــون
ويكللون رؤوسهم بالشوك والـــ ** أزهار تحت نعالهم فــي الدون
و يحاربون جسارة الأفعى بمـــا ** هو الحرير بلمســـــه واللــون
هم يضحكـــون إذا تلاقوا بينما ** أحشاؤهم من بعضهـــم كانون
صوت الغراب شناعــة وتشاؤما ** أبهى لهم من نغمة الحســـون
قل ما تشاء كما تشاء فإنــــهم ** ظلموك أيضا مثلما ظلمـــوني
هي ساعة مرت على نفرين مج ** نونين بين دعابة ومـــــجون
وإذا رأيت ســعادة لي بعـــدها ** فأنا السعيـــــد بساعة المجنون

وهكذا انقسم الشعراء إلى ثلاثة رجال: وضع السواد الأعظم منهم الجنون والعشق في واد واحد، ولم يذموا الجنون ولم يمدحوه، إلا أن الشاعر لا يستنكف أن يوصف بالجنون إذا عشق، بل لا يتردد في أن يصف نفسه به، وهذا الموقف يحتوي ضمنيا مدح الجنون، ولا ينظر في هذا المقام إلى رأي العــذال، لأنهــم مصنفون ضمن ظلمة المحبوبين اللذين لم يخالفا الفطرة التي جبل عليها البــشر. وذهب صنف من الشعراء إلى ذم الجنون والسخرية من أهله، وهذا مذهـــــب ما قال به شاعر إلا حط من قيمته لمشاركته عامة الناس في هذا الرأي، فيكــون قد أخرج نفسه من صنف المبدعين الذين يدركون ما خفي عن جهــال النـــاس

وسفهائهم، فكانت قيمة شعر هؤلاء في الوزن دون المعنى. أما الصنف الثالث – أكثر الله من أمثالهم، وأبقى أسنانهم في أفواههم ما أبقاهم على الأرض، وزين بشعرهم ديوان العرب، وزادهم صوابا على صوابهم – فهم الذين انتصروا للجنون ولأصحابه وعرفوا السلعة فاحترموا مالكها، إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو على كل شيء قدير.

غير أن المجانين ليسوا في حاجة إلى شعراء عالمنا بل إن لديهم شعراء من عالمهم، ولا تلمني إن قلت: إن الشعر بدأ على يد المجانين ثم اقتبسه شعراء عالمنا عنهم، ألم يظهر الشعر في بداياته الأولى سجعا عرف به الكهان؟ أولم يلتبس على الناس أمر كثير من الأفراد أهو كاهن أم مجنون؟ فمن السؤالين السابقين ينتج التباس بين الشاعر والمجنون مادام الكاهن عند الناس هو أحدهما. وبذلك، تدرك أن الشعر كان عند المجانين أولا، ومن هذه الحقيقة الراسخة في ذهن العرب وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم لما أعجزهم ببيان القرآن الكريم بالشعر والجنون قال الله عز وجل: ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ (الصافات 36)، وما كانوا ليصفوه إلا بما هو متعارف عندهم، ومما يزيدك اطمئنانا إلى ما قلت، ما حكاه الجاحظ في البيان والتبيين قائلا: وأما أبو حية النميري فإنه **أجن** من جعيفران وكان **أشعر** الناس وهو الذي يقول:

ألا حي أطلال الرسوم البواليا ** لبسن البلى مما لبسن الليواليا

وفي هذه القصيدة يقول:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة ** تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

وهو الذي يقول:

فأرخت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين: كف ومعصم[1]

ألا ترى أن الجاحظ رحمه الله وإياي، استعمل اسمين من أسماء التفضيل فقال: **أجـــن** ثم قال: **أشعـــر** الناس؟ ومعنى هذا أن ارتفاع درجـة الجنـون تزيد من شاعرية الرجل.

ومن عادتي أن أثير الفكرة وأقنع بها نفسي، وأتركك تفكر بشأنها لتكـون مشاركي في فكرتي التي أعجبت بها.

ومن جيد الشعر ما ذكره السيوطي عليه رحمة الله في كتابه المزهر فـي علوم اللغة وأنواعها: عن أبي حاتم قال: قال أبو العلاء العماني الحارثي لرجـل يرقص ابنته من الرجز:

محكوكة العينين معـطاء القفا ** كأنما قدت على متن الصفا

تمشي على متن شراك أعجفا ** كأنما تنـشر فيه مصحـفا

فقلت لأبي العلاء: ما معنى قول هذا الرجل؟ قال: لا أدري. قلت: إن لنـا علماء بالعربية لا يخفى عليهم ذلك. قال: فأتهم. فأتيت أبا عبيدة فسألته عن ذلك فقال: ما أطلعني الله على علم الغيب! فلقيت الأصـمعي، فـسألته عـن ذلـك، فقال: أنا أحسب أن شاعرها لو سئل عنه لم يدر ما هو. فلقيت أبا زيـد فـسألته عنه فقال: هذا المرقص اسمه المجنون بن جندب، وكان مجنونـا؛ ولا يعـرف كلام المجانين إلا مجنون، أسألت عنه أحدا؟ قلت: نعم، فلم يعرفه أحد منهم[2].

1- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دط. بيروت: دس، دار الجيل، ج2، ص229.

2- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط3. القاهرة: دس، دار الحرم للتراث، ج2، ص140.

صدق لا يعرف كلام المجنون إلا مجنون مثله، وإلا فما معنى الجنون إن لم يكن خاصا بفئة دون غيرها، ذلك أن **الشيء إذا ابتذل هان**، وعليك أن تفكر في هذه الجملة القصيرة جدا، لأنها متربعة على كنز من العلم.

وفي المستطرف: «حكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعرا فقلنا له: أحسنت. فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال ألمثلي يقال: أحسنت؟ ففررنا منه فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنت فقولوا: أحسنت. وإن أنا أسأت فقولوا: أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمم ** وحملوها وسارت بالـــدمى الإبل
وقلبت بخلال السجف ناظرها ** يرنو إلي ودمع العيـــن ينهمل
وودعت ببنان زانه عنـــــــهم ** ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادي العيس عرج كي أودعهم ** يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقص مودتهم ** ياليت شعري لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت. ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى[1]» ولعل هذه القصة مولدة لأن التكلف ظاهر فيها، لاجتماع ثلاث صفات متشابهة ومتداخلة، وهي الجنون والحب والشعر، ولا أظن محظوظا في الدنيا يفوز بالثلاثة. ولكن هذا من باب الإبداع الأدبي، إذ مقصود الشاعر إمتاع القارئ بوضع سياق لأبياته، وهذا مثل حكاية العرب عن الحيوانات كلاما.

ولما أحسست أنك مندهش منذ أن سمعت أن للمجانين شعراء، لم يحل لي المقام إلا بعد أن أثلج صدرك بخبر أحر من الأول، وهو أن للمجانين فلاسفة

---

1 – الإبشيهي، شهاب الدين بن أحمد أبو الفتح، المستطرف في كل فن مستظرف، شرح إبراهيم أمين محمد، دط. دس، المكتبة التوقيفية، ص321.

فضلا عن كون بعضهم شعراء، قال الجاحظ رحمه الله وإياي: «ومن المجـــانين علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ. وكان أول ما عرف من جنونه أنه قال: أرى الخطأ قد كثر في الدنيا، والدنيا كلها في جوف الفلك، وإنما نـــؤتى منـــه، وقـــد تخلخل وتخرم وتزايل، فاعتراه ما يعتري الهرمى، وإنما هو منجنـــون[1] فكـــم يصبر؟ وسأحتال في الصعود إليه، فإني إن نجرته ورندجته[2] وسويته، انقلـــب هذا الخطاء[3] كله إلى الصواب[4]».

رحم الله هذا المجنون! لقد أخطأ فقلب الكلام، وذلك لأنه مجنـــون مبتـــدئ وكان هذا أول كلام أعلن به جنونه، فقلب المعلومة لعدم رسوخ قدمه في الجنون، وإنما الخطأ هو سبب تخلخل وتخرم الفلك فعليه إصلاحه ليبقى الفلك سليما.

والقلب هذا، موجود في الفكر البشري سواء في اللغة أم في الفكر، أما في اللغة فهو في جميع مستوياتها الإفرادية والتركيبية، فالقلب في اللفظ المفرد كقول العرب: جبذ وجذب[*]، ولفظ حوشي ووحشي، وبعض وبضع مع ما قيـــل فـــي الكلمتين واضمحل وامضحل، ولبكت الشيء وبكلته إذا خلطته، وأســـير مكلـــب ومكبل، وسحاب مكفهر ومكرهف، وطامس وطاسم، وشرخ الـــشباب وشـــخره أوله... إلخ ومن القلب في العامية الجزائرية: لوجاب ولجواب بمعنى الجـــواب، ومعاك وعماك بمعنى معك، والرول واللور بمعنـــى إلـــى الـــوراء والاتـــساع

---

1 – في اللسان: «المنجنون الدولاب التي يستقى عليها».

2 – أراد صبغته باليرندج، وهو صبغ أسود، فارسي معرب. (عبد السلام محمد هارون).

3– الخطاء: الخطأ.

4– الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، ص16.

* قال سيبويه رحمه الله: «وأما جذبتُ وجبذتُ ونحوه فليس فيه قلب، وكل واحد منهما على حدته، لأن ذلك يطرد فيهما في كل معنى، ويتصرف الفعل فيه» أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1. بيروت: دس، دار الجيل، ج4، ص381.

والاستاع... ومن قلب التركيب ما رواه سيبويه في كتابه: «أدخلت في رأسي القلنسوة والجيد أدخلت في القلنسوة رأسي[1]».

ومن العجب أن يقع سيبويه في خطأ سببه القلب في رده على النحاة إذ قال: «وأما قول النحويين: يجازى بكل شيء يستفهم به، فلا يستقيم، من قبل أنك تجازي بإن وبحيثما وإذ ما ولا يستقيم بهن الاستفهام[2]» وليس كلامه هذا بحجة على النحاة وإنما الحجة أن يأتي بشيء يستفهم به ولا يجازى به، فتأمل.

وقد وردت آيات في القرآن الكريم مقلوبة التركيب ذلك أن القرآن نزل بلغة العرب، قال المبرد: «قال تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتيح[3]». ويكاد يكون من هذا الباب ما ذهب إليه ابن جني في معنى بعض الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ(28)﴾ (النمل، 28) قال: «أي اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم[4]» وقد يتعمد المتكلم قلب كلامه لحكمة رآها مثل ما رواه الجاحظ رحمه الله وإياي في كتابه البيان والتبيين: «قال سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله لطويس المغنِّي: أينا أسن أنا أم أنت يا طاوس؟ قال: "بأبي أنت وأمي؛ لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى

1- سيبويه، الكتاب، ج1، ص181.

2 - نفسه، ج3، ص59.

3 - محمد بن يزيد المبرد أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، دط. بيروت: دس، مؤسسة المعارف، ج1، ص113.

4- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دط. بيروت: دس، المكتبة العلمية، ج2، ص410.

أبيك الطيب". فانظر إلى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام، كيف لم يقل: زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك. وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى[1]».

وقد ذكر ابن الجوزي نتفا من أخبار المجانين في الباب الثلاثين في كتابه: "أخبار الأذكياء" وإني ذاكر واحدا منها، وناصحك بالرجوع إلى الكتاب للاستزادة. قال ابن الجوزي: أنبأنا إبراهيم بن دينار، عن الشبلي قال: رأيتُ يوم الجمعة معتوها عند جامع الرصافة قائما عريان، وهو يقول: أنا مجنون الله، أنا مجنون الله؛ فقلت: لم لا تدخل الجامع وتتوارى وتصلي؟ فأنشأ يقول:

يَقُولُون زُرْنا، واقْضِ واجِبَ حقِّنا ** وقد أسقطتْ حالي حقوقَهم عنِّي

إِذا هُم رأوا حالِي ولَم يأنَفُوا لها ** ولَم يأنَفُوا مِنها أنِفتُ لهم منِّي[2]

هذا ما أعجبني وما وقعت عليه في كتب القدامى، أما أنا شخصيا فقد قال لي يوما أحد المجانين الفلاسفة – وكان راعي غنم – الدنيا مبنية على الرقم أربعة، واستدل بعدد قوائم ماشيته، وقوائم كل الحيوانات من بقر وحمير وبغال وخيل وجمال، وكلها ذات أربع قوائم، أما الطيور فلها أربع كذلك: جناحان وقائمتان، وللإنسان يدان وقدمان، والجهات أربعة، والفصول أربعة، والكتب السماوية أربعة. هذا ما ذكره صاحبي المجنون عفا الله عني وعنه، ولست أدري أهذا الكلام له أم حدثه به غيره، أو درسه في كتاب من الكتب قبل أن يلج عالم الجنون، فتفكر في هذه المعلومة رحمك الله وإياي.

أما مؤلف هذا الكتاب فلم ينس أن يكتب شيئا في هذا الموضوع الهام، فشارك بقوله:

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص263، 264.

2 – ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، أخبار الأذكياء، ط1. بيروت: 1424هـ، 2003م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ص265.

ساعدوني، لا، توقفوا، لا تتدخلوا في شؤوني.

تعالوا، لِمَ ذهبتم وتركتموني؟

ابتعدوا، أريد أن أجلس وحيدا لقد أتعبتموني.

كلكم ضدي، تريدون فنائي، تريدون زوالي، لذا جئتموني

وحففتم بي، وادعيتم أنكم تحبونني، اذهبوا ولا تعودوا...

لكني سأشتاق إليكم، فأنتم أحبتي، أنتم إخوتي ليس لي غيركم، فهلا آنستموني؟

عيونكم لا تدل على خير، حركاتكم، سكناتكم، توحي أنكم تفسدون في الأرض ولا تصلحون.

أنتم الأبرياء، عرفتكم محبين للأبرياء، وأنا بريء كما تعلمون، وكلنا بريء ليس عندي ولا عندكم مثقال حبة من شر.

عفوا، أنتم سبب الفساد بعينه، فاعذروني.

كنت مجنونا حين مدحتكم. وما زلت مجنونا حين هجوتكم.

وعالم الجنون عجيب.

كل ما قلته صحيح فوافقوني.

وعلى كل حال نفذوا ما أمرتكم به ثم تعالوا وناظروني.

❖ **السؤال الثاني:** اذكر سيرتك العلمية، وعلاقتها بالجنون والمجانين.

الجواب الثاني: بعد أن تحصلت على شهادة الميلاد، أحسست بعظمة كبيرة جدا لأنني ظننت نفسي أول من تحصل على هذه الشهادة، وبقيت مؤمنا بهذه الفكرة الشيطانية سنين كثيرة، وعندما انتبهت فجأة وجدت كل البشر الذين عاشوا قبلي، وكل الخلق الذين أراهم من حولي ليلا ونهارا، متحصلين على شهادة ميلاد، وهذه المعلومة المشؤومة أوقفتني عند حدي، وقضت على

غروري، وأبطلت افتخاري بشهادة ميلادي، ولكنني متعود على احتقار غيري، والاستهزاء بهم، والتهجم عليهم، ومجبول على الانبهار بأقل عمل أنجزه، مستصغرا لمنجزات غيري ولو كانت قيد القتاد.

إذا سألت عن معنى قيد القتاد، فلا أشك في حماقتك، وإلا فكيف تسأل عن أشياء بسيطة مفهومة واضحة لدى الدهماء من الناس، وأنت في شرخ شبابك، وربيع سنك؟ والعبارة مطروحة في الطريق يعلمها العربي والأعجمي؟ ولكن هذه الأسئلة من الأدلة على قلة أهل العربية وكسل طلبتها، وهذا ما جعلنا نعين ألفاظا أعجمية على ألفاظ عربية، وإلا كيف نشرح كلمات عربية بأخرى فرنسية، ونفضل ألفاظا فرنسية على ألفاظ عربية، وننطق ألفاظا عربية نطقا فرنسيا فنقول: لييد، بدلا من العيد، وصاغى بدلا من الصحراء أو البيداء... وهذا ما أوضحته بالتفصيل في كتابي الموسوم بـ "اللغة العربية رَدَمْنَاهَا واللغة الفرنسية أحييناها" وهو كتاب لم يصنف في بابه مثله لا قبله ولا بعده، فراجعه تزدد علما إن شاء الله.

وأعود إلى ما كنت فيه من الكلام المفيد، وبيان كيف ساقني عنادي إلى طلب شهادة أفضل وأرقى مما تحصل عليه الناس، فذهبت – وأنا من أنا – وسجلت في المدرسة الابتدائية لأتحصل على شهادة مدرسية، ولكنني فوجئت بوجود مستويات كثيرة أدناها الشهادة الممنوحة لحضراتي. وفي هذه الفترة بدأ إحساسي يتغير ونظرتي تنعكس سلبا علي، فأصبحت أرى نفسي أصغر من على الأرض جسما، وأقلهم علما، وأضعفهم عقلا؛ وبدأت أحاول أن أوجد لنفسي كيانا لأعيد لها كبرياءها ولو كانت في عالم الخيال، فحولت صراعي مع عامة الناس إلى منافسة أقراني الضعفاء أمثالي، **واعتبرت القسم هو العالم، وأقراني من ضعفاء التلاميذ هم المجتمع الدولي**، فبذلت جهدا كبيرا لأن أكون أحسنهم...

وأصبح من حقي إثارة إعجاب المعلم والظفر باهتمام والديَّ، وبذلك أوجدت سببا لأن أتكبر على المجتمع الدولي الذي أوجدته على مستوى خيالي، فإن أخطأت في هذه المرحلة نسبت خطئي إلى معلمي المسكين الذي عانى من أجل تعليمي القراءة والكتابة والحساب، ولكنه في نظر الناس كالشيطان في نظر الفلاسفة والمتكلمين الذين ينسبون إليه كل قبيح ومنكر.

على كل حال، أوجدت في المرحلة الابتدائية فلسفة جعلتني أحس بالعظمة حتى إنني لما حفظت الفاتحة وقصار السور، ظننت أنني ختمت حفظ القرآن الكريم، غير أنني سمعت المرتل عبد الباسط عبد الصمد رحمه الله يحسن القراءة أحسن مني، ورأيته يقرأ لمدة مطولة من حفظه طيب الله ثراه، فكنت أجلس في مكان قفر وأدندن – تقليدا له – بكلام لا أعرف معناه وأقول: هكذا كان يقول، ولا بد أن الناس يرونني في تلفزيوناتهم ويسمعون قراءتي. كنت أعتقد أن الصورة تصل إلى بيوت الناس دون أن تكون أمامي كاميرات. هكذا كنت أعتقد، ولكنني انتقلت فيما بعد إلى التكميلية ووجدت تلاميذ أكثر عددا، ودرست سورا قرآنية أطول، بل إن أساتذة التربية الإسلامية علمونا أن القرآن يحتوي على ستين حزبا مقسمة على أربع عشرة ومئة سورة. عندئذ علمت أنني لم آخذ من البحر قطرة... وتلاشت الشهادات المدرسية التي تحصلت عليها. ولكنني كنت أجد من أتطاول عليه وأستعمل ألفاظ العلماء كالنفي العام(*) كقولي لم يرد في القرآن كذا، ولم يرد في السنة كذا، وأذكر أنني نفيت ذكر لفظ الحمار

---

* – هذا النوع من النفي من أصعب الأحكام، لأنه يحتاج إلى إحاطة بالموضوع، والحكم عليه بالخطأ من أيسر الأدلة لأنه يكفي ذكر شيء واحد يخالف ما ذكره المتكلم، ومثال قول أحدهم: لم يقل الجاحظ شعرا قط. فهذا نفي مطلق يحتاج إلى إحاطة بحياة الجاحظ الأدبية، وعلى من أراد تخطئة هذا القول أن يأتي ببيت واحد ولا يطلب منه أكثر من ذلك إلا أن يريد المبالغة في الاستدلال.

في القرآن الكريم اعتقادا مني أن الله لا يستعمل هذا اللفظ الحقير في كلامه، ولكنني وجدته فيما بعد يتكرر في القرآن خمس مرات وهي في قوله تعالى: ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس﴾ البقرة 259. وقوله: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ الجمعة 5. وقوله: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ النحل 8 وقوله: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لقمان 19. وقوله:﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة﴾ المدثر: 49، 50، 51. فعلمت أنني جاهل ولما أحقق العظمة التي أنشدها، فعزمت عزما أكيدا على رفع مستواي والتخلص من عقدة الكبرياء والفخر وما إلى ذلك من الأخلاق القبيحة، والشيم الذميمة، وانكببت على قراءة الكتب في اللغة والأدب خاصة، وقررت الفوز في امتحان البكالوريا فكان ذلك بعد جهد جهيد، ثم انتقلت إلى الجامعة وكنت أكتشف ضعفي يوما بعد يوم، لقد ذهب كل شعور بالتميز والعظمة بعد معرفة أساتذة كبار، وقراءة كتب بعض عباقرة الإنسانية في عصور مختلفة، عندئذ سميت نفسي **نقطة** وأصبح الناس ينادونني بيا نقطة، وبعضهم يكتبها بالفرنسية ويقرأها نكتة فأصبحت أضحوكة.

وكانت أحب المحاضرات لدي محاضرة الأدب الجاهلي التي كنت أجول بخاطري أثناءها في بساطة فيافي البداوة العربية وذلك من خلال المقدمات الطللية والقصائد الغزلية، وكنت أتوسم نفسي ناقدا فجعلت أشعر بيت قول الشاعر:

أحبها وتحبني ** ويحب ناقتها بعيري

فأثر في نفسي هذا البيت أيما تأثير، وعزمت على خوض مغامرة الحب، فنظرت في فتيات الجامعة فلم تعجبني واحدة منهن لاتصاف أغلبهن بما وصفهن

به الجاحظ رحمه الله وإياي. غير أني جلت ذات يوم في شوارع المدينة، فرأيت فتاة جميلة تقف وقفة رزينة، وتلبس لباسا أنيقا، من غير تبجح ولا زينة، فنظرت إليها وهي تنظر إلي، فأصابت بسهامها قلبي العليل، وأضحته قتيلا، ولم يستطع من قيودها خلاصا، وعلم أنها تجيد الصيد اقتناصا، فاستسلم استسلام الزعيم الأسير الواقع بين يدي عدوه، وهام بها حبا. وألفت التردد إلى مكان وقوفها فأجدها في انتظاري فأرقبها وترقبني من بعيد، وبكثرة التردد أحببت الشارع الذي تنتظرني فيه يوميا، ولكنني انتبهت إلى أنها صاحبة محل لبيع الملابس النسوية، فظننتها غنية، فكان يحق لي أن أضيف إلى حجج حبي لها «...لمالها...». ولما تمكن الحب مني، وكاد الشوق يقتلني، وهجرني نوم الفجر، ذهبت إليها مبكرا، فوجدت محلها مغلقا، فانتظرت ساعة أو ساعتين حتى جاء رجل وسيم، وفتح المحل وأخرجها فإذا هي دمية يعرض عليها الملابس للبيع.

عندئذ أصبت بالخيبة والندم والحسرة على وقتي الثمين الذي ضيعته في تفاهة أملاها عليَّ شبابي وقلة عقلي، وعلمت أن العلم الذي أوصلني إلى هذه المرتبة من الوقاحة لجدير أن يهجر هجرا أكيدا. وعدت إلى البيت خاوي البطن، معوج الظهر، رقيق العظم، علامات الشيخوخة على جسمي بادية، ولساني أخرس لا يتكلم، والحزن يكاد يدفنني... فعلم أهلي أني عاشق لا محالة. فعزموا عزما أكيدا على أن يزوجوني، وذهبوا كل مذهب لإيجاد امرأة تصلح لمرافقتي في حياتي، وتعيد إلى نفسي سكينتها، ولست أدري كيف وقع اختيارهم على فتاة رياضية لها خبرة بالفن النبيل، فزوجوني إياها رغم أنفي، وتحصلت على شهادة عقد الزواج، وكنت كلما اختلفت مع زوجتي في فروع المسائل أو في أصولها، أوجعتني ضربا فهشمت أنفي وأسقطت ثناياي، وعانيت معها كل مر ومدقع. وبعد أن فشلت في هذه التجربة مرضت مرضا نفسيا عافاك الله منه، فأصبحت أرى كل شيء في الكون مضحكا، وأعتبر كل كلام نكتة فلاحظ الناس كثرة

ضحكي، وسمعوا قهقهاتي المرتفعات... أصبحت كلما سمعت متكالمين إلا واعتبرت أحدهما خادعا للآخر ومحتالا عليه، فهو لما يقول له: طالت غيبتك، واشتقنا إلى رؤيتك مع ما أعتقده فيه يبعث في نفسي الضحك من كلامه، أما إذا قال له: "صباح الخير يا وجه الخير" فذلك مما يزيدني سخرية من كلامه. ويعود هذا الشعور أساسا إلى انسحاب الثقة من جميع الكائنات الحية التي عشت بجانبها طويلا ولم آلفها ولم تألفني يوما.

وشعور آخر أصبح يضحكني ويفتح باب الخيال أمامي، وأعلم أني بمجرد أن أخبرك به، وتفهمه حق الفهم، تصاب بالمرض نفسه الذي أصبت به، وهو أنني من حين إلى آخر أتخيل الدنيا بيتا كبيرا تجمع فيه كل الحالات الموجودة في الدنيا التي تمثل علاقات الناس بعضهم ببعض بحيث يمكن رؤيتها جميعها في وقت واحد؛ فإنك سترى إنسانا يساعد أُماً على وضع إنسان، وشخصا يبيع سلعة لشخص، وإنسانا يفحص إنسانا، وآخر يعلم أناسا صغارا كانوا أو كبارا، ورجلا يقتل أو يعمل ليقتل فردا ذكرا كان أو أنثى، وإنسانا يمد يده ليسرق مال إنسان من جيبه والمسروق منتبه أو غافل، وعبدا من عباد الله تحت تعذيب عدو له، وإنسانا يحتال على إنسان ليخدعه ويأخذ سلعته بثمن بخس، وشخصا يسأل شخصا والشخص يعطيه مما أعطاه الله أو يمنعه، وكائنا بشريا يدل غريبا على الطريق أو يعطيه شربة ماء أو ينزله بيته ضيفا عنده، وبشرا يتهم بشرا، وبشرا آخر يدافع عن موكله، والبشر الثالث يعمل على إثبات التهمة الموجهة إلى البشر المتهم، وكلهم يتوجه بكلامه إلى بشر ليفصل في القضية، وقد يكون عادلا وقد يكون ظالما، وبشرا آخرين جالسين منصتين لما يقول هؤلاء البشر الذين حدثتك عنهم، وهم مؤيدون لأحد الطرفين أو محايدون، وإنسانا يحمل رسالة إلى إنسان، ومخلوقا ضعيفا يكتب ضريبة بسبب مخالفة لقانون من قوانين المرور التي ارتكبها مخلوق ضعيف مثله، وبشرا يقوم بحركات مضحكة والناس من حوله

يضحكون ويصفقون، وآخر يغني وجمهوره يحييه، وناسا يحملون إنسانا رحمه الله على خشبة حدباء ليكبروا عليه أربعا ثم يضعوه تحت الثرى.

عندما اجتمعت هذه الصور في ذهني، وظننت أني أصبحت أرى الشيء العادي غريبا كأني لم أره من قبل، أصبحت غريبا وأحسست بالوحدة القاتلة وقررت زيارة حديقة من حدائق الجنون، وحاولت إخراج هذا الكتاب لألحق العدوى بناس عاديين أمثالك، ولن يهدأ لي بال حتى أرى في غيري ما أحسه في نفسي، حتى يصدق في قول الحكماء العظماء: "إذا عمت خفت".

❖ **السؤال الأول:** لأخرجك هذه المرة من موضوع الجنون، ولأجعلك تستريح قليلا من الأسئلة عن عالمنا ولأوقض حنينك إلى عالمكم، أقول: ما أثر الغيب على الفكر عندكم؟

الجواب الأول: لا أكون مبالغا إن قلت: إن الإنسان مفطور على حب نفسه وتفضيلها على سائر البشر، لذلك إذا وجد مصدرا للرزق استحوذ عليه ولم يسمح للناس مشاركته، ولكن الرزق بيد الله وحده يرزق من يشاء بغير حساب، فاقتضت حكمته تعالى أن يجعل للناس صفات لا يمكنهم معها تخلي بعضهم عن بعض، وليس لهم بد من اشتراكهم في الرزق، وإني ذاكر بعض هذه الصفات:

فرق الله العلم بين الناس، فلا أحد يعرف كل شيء حتى يستغني عن غيره من أصحاب المهن والحرف، بل إنه راجع إليهم، ومحتاج إلى خدماتهم، لجهله لكثير من أسرار الكون وخباياه، ولو أوتي العلم فإنه ليس بمقدوره الاستغناء عن غيره لضعف في جسده، وضيق في وقته، ونقص في ماله.

ولما علم بعض الناس أن غيرهم لن يعطوهم المال إلا مجبرين، لجأوا إلى حيلة تمكنهم من مخادعة من قل نصيبه من العقل والعلم والدين، فقالوا لهم بلسان حالهم: نحن لا نطلب منكم الأموال، ولو كان بمقدورنا مساعدتكم مجانا لما أخذناها منكم، ولكن ثمة قوى أخرى هي التي تطلب منا أخذ أموالكم.

ومن هؤلاء: الكهنة الذين يدّعون أن الجن يطلب كذا وكذا من المـــريض، وما عليه إلا السمع، والطاعة، وإلا تلبسه الجن ومسخه قردا أو حمارا نعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس، وتنطلي الحيلة على السفيه المتقــبض الزميــت، خوفا من غضب العفريت النفريت، ويهرع إلى إحضار ما عز من ماله، ويضعه بين يدي الكاهن صاحب البركات ليتجه به إلى بيته مبتسما مندهشا مــن ذكائــه ومستغربا من حماقة الناس! وما كان المريض ليعطي الكاهن ماله لو لم يستعمل شيئا من الغيب لعلمه بأن **الإنسان يقدس الغيب ويهابه.**

ومن هؤلاء: الساعي بين الراشي والمرتشي، إذ إن المرتشي لا يريــد أن يطلب الرشوة من الراشي مباشرة خوفا من القانون، وتجنبا لرفض الراشي لعلمه أن الإنسان لا يبذل ماله إلا إذا توفر قسط من الغيب، والماشـــي بـــين الراشـــي والمرتشي كالكاهن بين المريض والجن في ادعائه عدم استفادته هو شخصيا من المال، وما هو إلا حامل أمانة، والحقيقة أنه أحد المستفيدين، وأنه لا يعمل شـــيئا لصالح الراشي أو لصالح المرتشي مجانا، **ولو لم يكن الواسطة لقلــت ظــاهرة الرشوة بنسبة كبيرة جدا.**

ثم انتقلت هذه الصفة من الجانب المادي المالي إلـــى الجانـــب المعنـــوي اللغوي، ولذلك لا يخاطب الملوك والسلاطين بضمائر المخاطب العادية ولكـــنهم يخاطبون بضمائر الغيبة أو بضمائر المخاطب الجمع، وليست هـــذه الخاصـــية مأخوذة من اللغة الفرنسية كما قال بذلك بعض الباحثين المعاصـــرين، ولكنهـــا خاصية في اللغة العربية وإن اشتهرت أكثر في القرن الرابع الهجري، وقد ذكر ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامهـــا"

شيئا من هذا الباب، واتبعه الثعالبي في كتابه القيم "فقه اللغة وأسرار العربية" فراجعهما[1].

ولما أحس أبو حيان التوحيدي بشيء من التكلف في استعمال ضمائر الغائب لمخاطبة الحاضر، قال في الليلة الأولى من كتابه المفيد "الإمتاع والمؤانسة": «قلت: يؤذن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركب جدد القول من غير تقية، ولا تحاش، ولا محاباة، ولا انحياش.

قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى – على علو شأنه، وقدرته على جميع خلقه – يواجه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رفعة، وجلالة، وقدر، ورتبة، وتقديس، وتمجيد؛ لكان الله أحق بذلك ومقدما فيه...[2]» فإنك تلاحظ أن **الناس يقدسون الغيب حتى في كلامهم**، فعندهم "هو" أحسن من "أنت" وهذا امتداد لما ذكرته من احتياجهم إلى واسطة لتهون عليهم أموالهم فيبذلونها. فتأمل هذه الفكرة وكيف أن اللغة تتأثر بمعتقدات الناس وعاداتهم وإن كان الأمر في هذا المثال غامضا، لكنك لو تفكر كما يجب أن تفكر لوجدت أحد الأمرين منبثقا من الآخر.

---

1 – ينظر: أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تعليق أحمد حسن بسج، ط1. بيروت: 1418هـ، 1997م، دار الكتب العلمية، ص162، 163. عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، شرح وتعليق ديزيره سقال، ط1. بيروت: 1999م، دار الفكر العربي، ص247، 248.

2– أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دط. الجزائر: 1989م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، ج1، ص44، 45.

ومن هذا الباب عدم مناداة الأبناء والأحفاد وأبناء الأخ وأبناء الأخت... أقاربهم بأسمائهم لأنها في مرتبة "أنت" في اللغة أو في مرتبة "الكاهن" أو "المرتشي" في المثالين السابقين.

قال: كنت أظن أنك ستبين علاقة الغيب بالجنون، ولكني سمحت لك بالكلام عن عالمكم، ولصبرك علي وعدم اعتراضك على أسئلتي، وحبك البين لعالمنا أعلن رسميا أنك أصبحت **منا**.

ففرحت أيما فرح، واستبشرت بهذا الإعلان خيرا، وعرفت أنه بإمكاني بعد هذا القرار تقديم خدمة للبشرية لم أسبق إليها، فمضيت على وجهي في أكبر وأجمل وأحسن حديقة للجنون، وجلست وسط أشجار خضراء وأزهار مختلفة الألوان، فرأيتك جالسا أمامي فحدثتك طويلا، ثم جمعت قولي في هذا الكتاب.

بداية الهلوسة:

كنت منذ زمن بعيد نسبيا أبحث عن السعادة، معتقدا أنني وحيد في هذا العالم في بحثي عن الهناء والاستقرار، لما عهدته من الناس من إثارة المشاكل والفوضى والضجيج وجميع أصناف الضوضاء والصخب، فهم أسباب إثارة الحروب وجلب الأحزان والمآسي، ففهمت من أعمالهم أنهم ضد السعادة، وفجأة وجدتك بجانبي موافقا لي في مطلبي، ومشاركا إياي في مذهبي، وهذا مما يزيد من سعادتي، ويبقي في روعي بصيص الأمل الذي كاد أن ينطفئ، وبهذه المناسبة السعيدة أهدي إليك هديتين، وأرجو أن تحتفظ بهما حتى تدوم المودة بيني وبينك، فقد لا نلتقي بعد اليوم، إما أن تتغير حالك فتتركني، أو تتغير حالي فأتركك. هذه هي الحقيقة المرة التي لا أحب إخفاءها عنك، فإن فاتني الإخلاص لك، فليس من العقل أن يفوتني الصدق معك؛ فبمجرد أن تتغير ظروفي السيئة وأصبح أحسن منك أتركك ولا أبالي، ولا أجبرك على البقاء معي إن تحسنت

أحوالك قبلي، وبتعبير بسيط: أنت تشبهني وتزيل الوحدة عني، لكنني لا أوثرك على نفسي، ولا أحتاجك لأن تضحي من أجلي، وإليك الهديتان:

– أوصيك ألا تقلق، فإن القلق يشتت أمورك، ويجعل الواسع ضيقا في نظرك، ولا يعود عليك بشيء، ولو كان بإمكان القلق أن يحرك الزمن أو أن يوقفه لكانت منه جدوى، ولكنه لا يزيد على أن يضع صاحبه على الجمر.

– تعلم أن تسمع، اسمع نصيحة المثقف والشيخ والصبي والمرأة والأحمق والعالم والجاهل، وكل من وجه الكلام إليك فأحسن استماع حديثه، وتنازل عن قسط من وقتك لفهم مراد قوله وفحوى كلامه، ثم ضع عقلك مميزا للصحيح من السقيم، والغث من السمين، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ(17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ(18)﴾ الزمر (17، 18) أما أن تقبل كلام هذا، وترفض كلام ذاك، انطلاقا من أن هذا هذا، وذاك ذاك فلا ثم لا.

أما الآن فإني أعتذر عن عدم ترحيبي بك، غير أني أستدرك ما فات فأقول وكأني لم أرك إلا الساعة: أهلا ومرحبا بك، ولا بأس أن أخبرك أني سعيد جدا بالتحاقك بي في هذه اللحظة، وعلى الفور فإني أعتبرك صديقا قديما، وصاحبا وفيا، لا أخفي عنك أي سر، ولا أستأثر دونك بأي خبر، وهذه عادتي التي نشأت عليها منذ الصغر، ولذلك أتكلم أحيانا بكلمات تبدو حمقاء أو أن صاحبها أحمق، ولكنني لا أبالي ما دمت أحدث شخصا أستريح إليه، ولعله يجد حيالي ما أجد حياله.

تصحيف خطير:

وما رأيت أن أبدأ به في هذه العجالة هو أن أعرفك بنفسي ولا أطلب منك أن تعرفني بنفسك، وهذه البداية لا بد منها، لأن **ماء الصداقة لا يصفو حتى يتعارف الصديقان وتنجلي سحب الهيبة بينهما، فيقدمان على الحديث مع بعضهما بما لا يقدران الإقدام عليه مع الغريب عنهما**، والحقيقة أن التعارف يكون من الطرفين ولا يكون مصطنعا وإنما يأتي عفويا، فيبوح كل واحد منهما بأسراره لصديقه حسب ما تقتضيه الحال، وتكون الأسرار بينهما سارية كلما أمن بعضهما، وعلما أنهما يضعانها في صدر يحفظ أسرار غيره أكثر مما يحفظ أسراره الخاصة؛ **فالأسرار هي المعيار الأقوى على قوة الصداقة**، فإن علمتها فلا تطلب غيرها.

فأنا بطبيعة الحال شخص، ولا أظنك تجهل هذه المعلومة القيمة، وإنما أردت أن أذكرك بها، وطالما عملت جاهدا للمحافظة على هذه الخاصية، غير أن بعض الجهلة– عفا الله عني وعنك وعنهم – يحرفون هذه الكلمة ويعتبرونني **صخشا**، وبهذا التصحيف الخطير أصابوا أهم ميزة أعتز بها، وقد تكون الوحيدة التي أعيش من أجلها، فهي التي منحتني حق العيش على الأرض، وإني بصدد تطوير هذه الكلمة والرفع من مستواها.

محاصرة الكذب:

لا يهم، دعنا نبدأ حديثنا الذي تعارفنا من أجله، وهو بلا شك...– إنك تعرفه ولذلك لا أود أن أخبرك به؛ لا تجعلني أشك أني أنا **صخشيا** لا أعرف الموضوع الذي جعلني وإياك نتعارف، لنقل هي الصدفة.

ولكن، كن متأكدا من أن موضوعا مشتركا- إن لم نقل مواضيع- سنتحدث عنها وسنناقشها مناقشة بعيدة عن كل العواطف التي تؤدي بالإنسان في أغلب الأحيان إلى كتمان الحقيقة. أراك بدأت تفهمني وإن كان كلامي في عمومه يمتاز بنوع من الغموض، طبعا هذا راجع لتذبذب أفكاري الداخلية والخارجية على حد سواء. أرجوك!... عوض غموض كلامي، وتشتت أفكاري، وحماقتها، بفكرك الثاقب، وسمعك الحاد، وفهمك السريع لكل الإيحاءات والتصريحات، ولا يكن فهمك للمنطوق بأحسن من فهمك للمشار إليه بإشارة يد، أو كناية لفظ، أو حركة جارحة من الجوارح. ولعلمك: فإن **العالم كله متحدث،** مفصح عما بداخله، معبر عن حقيقته، غير أن لكل جزء منه لغته الخاصة يتفاضل الناس في فهمها كل حسب علمه، وحدة ذكائه، وتجربته في الحياة. وفي هذا الباب يقول الشاعر:

إِنْ كُنْتُ لَمْ أُفْصِحْ لِخَطْبٍ هَالَنِي ** فَسَلُوا بَعِيرِي إِنَّهُ هُوَ أَفْصَحُ
وَخُذُوا النَّصِيحَةَ عَنْ قَمِيصِي إِنَّهُ ** لأَجَلُّ مَنْ يَعِظُ النِّيَامَ وَيَنْصَحُ

و**للإنسان عدة لغات** – لا أقصد لغات اللسان فهي واحدة وإن اختلفت أصواتها – منها ما لا يمكن أن تكذب، ومنها ما لا يمكنها أن تصدق، ومنها ما تكذب أحيانا وتصدق أحيانا أخرى.

- **أما الصنف الأول:** وهو الأفعال والتصرفات، وعلامات الوجه، وحركات الجسم، أو نشاطه وخموله، وفلتات اللسان، وهذه اللغة هي التي تعطيك أسرار غيرك، وتكشف لك عن الحقيقة التي يحاول الناس إخفاءها ولكن هيهات. وقد يكون زهير بن أبي سلمى ذهب إلى هذا المعنى عندما قال:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ** وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وثمة خلة أخرى تدخل في هذا الباب وإن لم تكن منه؛ وهي أقوال الأطفال البريئة التي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة، وبعض التصريحات التي يدلي بها الشخص عند غضبه الشديد، أو عند فرحه الشديد، وهذه الحالات تسمى في اللغة الطرب، وهي خفة العقل بسبب الفرح أو الخوف أو الغضب، والهدف من هذا الكلام ليس هو أن يتتبع الإنسان هذه الحالات ليؤاخذ الناس بها ويستخرج نقائصهم، اعتقادا منه أنه لا يخطئ أو أنه اطلع على غيب قلوبهم، وإنما عليه أن يحذر من هذه الحالات لئلا يفسد علاقاته مع إخوانه، ولئلا يتلفظ بألفاظ تضره أكثر مما تنفعه، كما أنه ليس كل ما يتلفظ به الناس في هذه الحالات هو الابن الشرعي لنواياهم، ولكن الإنسان يقع في حالات عجز فيقول كلاما علَّه يعوض ضعف جسمه وقلة حيلته، ونفاد ماله، بشدة ألفاظه وقوتها.

ولهذا – أيها الصديق – عليك أن تفرق بين بريق اللؤلؤ ولمعان السم الزعاف. وشيء آخر يدخل في هذا الباب هو "التضحية بالأسرار من أجل كسب المناظرة" وقد لا أكون بحاجة إلى الشرح المفيض لأنك سريع الفهم، ذكي الفكر، متوقد الذهن. لذلك، اتخذتك صديقا، وجعلتك خليلا، ورافقتك في رحلتي، وقاسمتك أفكاري، وإن كانت بليدة المعنى، ركيكة العبارة، قليلة الفائدة، كثيرة الزلل، ومع ذلك فإني أعتز بها لاعتباري إياها بناتي واجب علي تربيتهن وإطعامهن وكسوتهن حتى يتزوجن، وعند ذاك فلا لوم علي، وقد أبلغتهن بيوتهن، وأخرجتهن من ضعفهن. ولكن لا بأس أن أوضح قليلا حتى أوفي الكلام حقه، ولا أتركه يتيما فقيرا غريبا بين أعداء أبيه، يتجاذبونه من كل جانب.

فأقول: التضحية بالأسرار من أجل كسب المناظرة هي أن يلجأ المناظِر إلى كشف بعض الحقائق التي كان يخفيها بعد أن يرى أنها هي الحجة الوحيدة المتبقية عنده، وهذا يكون عند إصراره الشديد على إقناع الخصم ومثل

ذلك: كأن يشتد النقاش بين فردين حول قدرة أحدهما على شراء سلعة معينة، فيدعي الأول أنها غالية الثمن ولا يستطيع أحد شراءها، فيصرح الثاني أنه بإمكانه شراؤها، فيشتد النقاش، ويصر الأول على رأيه ويعزز أقواله بذكر الضعف المادي للشخص الثاني، كأن يقول له: أتستطيع شراء هذه السلعة؟ وأنت الذي تجلس في المكان الفلاني طمعا في مشاركة الفقراء في الصدقات! فيغضب الثاني ويستفزه هذا القول، ويصرح بأنه يملك من المال كذا وكذا، وأنه مقبل على استلام مشروع من شأنه أن يضاعف من رأس ماله، وقد يخرج من جيبه وثائق تثبت رصيده في البنك أو تبين عقد الصفقة التي صرح بها، إلى غير ذلك من التصرفات التي يرى أنها تثبت صحة قوله وتدحض قول صاحبه. وما كان هذا الشخص الثاني ليكشف أسراره لو لم يفحمه الأول بالأدلة، ولو لم يكن هو مصرا على إقناع صاحبه، وعليك – أيها الصديق – أن تحذر من الحالات المشابهة لما بينته لك، وأن تقيس عليها لتستخرج حالات لم أذكرها في هذه الكلمة المختصرة.

– و**الصنف الثاني:** وهو القول المخالف لسنن الحياة وقوانينها، أو المعارض لأفعال الشخص. فلو أخبرني أو أخبرك – وكلانا كيِّس لا يمكن أن يخدعه الحاذق في الكذب فضلا عن الغمر الأحمق، الذي ينقض أولَ كلامه آخرُه، ويختلف شطر منه عن الشطر الآخر، حتى يتبين للمستمع أن كلماته ليست ابنة معنى واحد، ولم تجن من شجرة واحدة – أنه عمل مديرا لمدة أربعين سنة ثم قرر أن ينسحب من الإدارة لينشئ جمعية تعمل على مساعدة الطلبة المعوقين مثلا، وذلك حبا منه للعلم، وحرصا من سيادته الموقرة على إيصاله إلى الفئات المحرومة، وجعلها تعيش حياة متكاملة مثل بقية البشر... وما أشبه هذا من الكلام الذي يسرق العقول ويذهب بالألباب، ثم يستطرد في كلامه، حتى

يصرح بأن له خبرة كبيرة في عمله الخيري هذا، لاسيما وأنه قد مارسه منذ أن كان سنه عشرين عاما، فهذا لا يمكن أن يكون صادقا خاصة إذا كان سنه لم يتجاوز الأربعين.

ومن الأمثلة على هذا ما يرد في بعض القصص الشعبية، مثل ما حكي عن رجل أن الله علمه لغة الحيوان، بشرط أنه إذا كشف عن معنى قول حيوان ما لأي شخص فإنه يموت فورا، وذات مرة، كان مع زوجته، فسمع صهيل فرس فتبسم، فألحت عليه زوجته ليخبرها عما قالت. فأبى، فألحت عليه، وأصرت إصرارا لم يستطع معه المحافظة على رفضه، فقال لها: سأخبرك بعد أن أقيم وليمة لجيراني أودعهم فيها. وأقام الوليمة، ودعا جيرانه وقدم لهم الطعام، وبينما هم يأكلون، إذ وقع عظم بين كلبه وبين كلب جاره، فتعاركا.. فقال كلب الجار: صاحبك ضعيف الصخشية، ضحى بحياته من أجل خبر يقوله لزوجته؟!... فسمعه الرجل وأخذ عصا ودخل إلى زوجته وانهال عليها ضربا، عقابا لها على إصرارها الذي كاد أن يقتله. عندما تقرأ هذه القصة وتتخيل لو أنها كانت حقيقة فإنها مستحيلة الوقوع، لأن الرجل محرم عليه إفهام غيره ما سمعه من الحيوان، فمن الذي أخبر الراوي عن معنى ما قاله الكلب؟ وكثير من كلام الناس يشبه هذه القصة ولكنهم لا ينتبهون إلى هذه الفجوات.

– و**الصنف الثالث:** وهو أكثر من غيره وجودا، وهو ما يمكن أن يكون صادقا، كما يمكن أن يكون كاذبا، وهذا الصنف هو سبب الالتباس، وإلا لما وجد الكذب أصلا، ويتمثل في كلام الناس الذي لا يكذبه العقل وليس بواجب الحدوث، والأمثلة في هذا الباب كثيرة لا داعي لأن أتعبك بشرحها، وتتبع تفاصيلها فهي لا تخفى عليك إن شاء الله.

– وهنا، وفي هذه الآونة بالذات أشعر وكأنك تسألني، كيف أعرف الصواب من الخطأ؟ وكيف أميز الصدق من الكذب؟ وكيف أعرف النافع من الضار؟

اختيار الأصعب:

– فأقول: من فضلك! دعني أتحدث ولا تقاطعني، وأنا من أولئك الذين يحبون أن يتحدثوا كثيرا ثم لا يأتون بطائل، وأتمنى ألا تكون من الذين لا يصبرون على أمثالي، ومن المعلوم أن صنفي وصنفك لا يلتقيان إلا أبغض أحدهما الآخر، فيكون مثلي ومثلك كأبي واثلة إياس بن معاوية المزني القاضي وعبد الله بن شبرمة الذي قال له: « أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع[1]» حسب ما ذكره الجاحظ رحمه الله وإياي في كتابه البيان والتبيين. والحقيقة أني لست من الذين لا يحبون أن يسمعوا ولكني من الذين لا يحبون أن يقاطع كلامهم أحد. هذه حقيقة من الحقائق ولتكن أولى الحقائق التي عرفتها واستفدتها من سؤالك الوجيه.

ولنبدأ الآن بعد هذا الإسهاب الممل والاختصار المخل في الإجابة عن السؤال:

❖ أولا: من خلال تأملنا للحياة، نجد كل مفيد يتستر وراء جملة من الصعوبات والعوائق، وكل مضر سهل ميسور يصل إلى الشخص رغم حذره منه ودفعه إياه، ومن خلال هذه الحقيقة المرة التي يدركها كثير من الناس، يمكن اعتقاد أن الحقيقة تكمن وراء الصعوبة، **فالحقيقة قليلة عزيزة، والأباطيل كثيرة مبذولة**، غير أن في هذا المبدأ – وإن بدا صالحا لمعرفة الصواب من الباطل – نقائص أهمها:

1– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص98.

– أن النفس تحب ما منعت فلا ترى عيوبه، وعندئذ تعتبره مثالا لو تحقق لكان نصرا مبينا، وبمجرد حصولها عليه، وتمكنها منه، يصبح شيئا تافها لا قيمة له، ولو تأملت حال الإنسان فإنه يعيش لحظات جميلة جدا وهو لا يلقي لها بالا، ولكن عندما تمر، ويعلم أنها لا تعود إليه، ولا سبيل له لأن يذهب هو إليها يتنفس الآهات، وينفث الحسرات، حزنا وبكاء على تلك اللحظات، وأي لحظات؟ كما أننا نحن معشر الإنس نتمتع بنعم كثيرة وهبها الله لنا، ورزقنا إياها؛ لا نشكره عليها وفي أغلب الأحيان. فإذا ذهب أبسطها اعتبرناه نعيما لو يعود، ولكن "لو" لا تأتي بخير. وهذا من أكبر الحرمان، لأنه حرمان أثناء النعمة بعدم معرفة قيمتها، وحرمان بعد ذهابها وهما سيان، **ولا يتمتع الإنسان بالنعمة إلا إذا وُجدت وقرنها بمعرفة قيمتها**، ولا يبقى من شيء يقلقه إلا خوف ذهابها... إذن الأصعب ليس هو الحقيقة وإن عز على النفس واشتاقت إليه.

❖ لا تظن أني يئست من البحث عن الصواب عندما لم أنجح في المحاولة الأولى، ولكني أحسست بمتعتين اثنتين: متعة المحاولة ومتعة الفشل، لا عليك، سنؤجل الجواب عن سؤالك الأول لأجيبك عن متعة الفشل، لأنني أعرف تتبعك إياي، واستغرابك من كلامي الذي يبدو منحرفا عن جادة الصواب، وإلا فمتى كان للفشل متعة؟

أكذوبة الحياة:

• في الحقيقة أن **الإنسان مركب تركيبا يتلاءم مع تعمير الأرض**، ولولا ذلك لانتحر الناس جميعا وبقيت الأرض خرابا، فهو يخاف الموت، ويحب الملك، والمال، والبنين، والعلم، والسلطة. كما فطر على حب وطنه الذي ولد فيه

وإن كان أرضا جرداء. حكمة من الله لتبقى الأرض معمورة، وهذه الخلة الأخيرة تحدث عنها الجاحظ – رحمه الله – في غير ما موضع من كتبه.

كما فطر على الكذب على نفسه في حالات الفشل، فيشجع نفسه ويقول: ليس الخطأ مني، ولكنني مظلوم فأنا ناجح في الحقيقة. أو يقول: المهم المشاركة، أو يقول: الفشل في مثل هذه المشاريع خير... إلى غير ذلك من الأكاذيب التي يعزي بها نفسه ويؤاسيها، وهذه الفطرة تساعد الإنسان على تحمل صدمة الفشل، غير أني بالغت فيها حتى جعلت للفشل متعة، فقلت: عندما حاولت البحث عن الحقيقة فكرت، وهذا دليل على أني لست **صخشا** كما يقولون، وعندما لم أصل إلى النتيجة التي كنت أتمنى الوصول إليها، فإني قدمت خدمة للبشرية حتى لا يحاولوا فيفشلوا، ثم إن لي أجرا ولو لم أجتهد لما أجرت، وشيء آخر وهو أني سعيد جدا بأن **استطعت أن أعترف بخطئي عندما استطعت أن أعرف أنه خطأ**، وفي كل هذه العناصر متعة كبيرة ناتجة عن الفشل، فإن كنت أفكر بشكل صحيح فالحمد لله على توفيقه، وإن كنت أواسي نفسي وأعزيها بمناسبة فشلها، فأنا داخل في الفطرة البشرية التي أشرت إليها في البداية والحمد لله على كل حال.

متاهة البطة والدجاجة:

– لنعود إلى تحديد كيفية معرفة الحقيقة من الأباطيل: اعلم رحمني الله وإياك، أن **الحقيقة تختفي خلف كثير من الالتباسات في هذه الحياة**، ولذلك يصعب تحديدها عند كثير من الناس، وفي هذه العجالة أحاول أن أشير إلى بعض العوامل التي تؤدي بالعوام إلى الخلط بين زيد وعمرو.

أولا: الغلو في تحكيم العواطف، فيصبح الإنسان يرى الحياة كما يريدها وليست كما هي عليه في الحقيقة، وهذا مرض خطير جدا، لأنه يصعب في هذه

الحالة تصليح الخطأ مادام أنه يعتقد نفسه هو المقياس والمعيار الذي تجب العودة إليه لسلوك الطريق الصحيح، وفي هذه الحالة تتفشى ظاهرتا التعصب والعنف في المجتمع، إذ المصاب بهذا الداء يحاول فرض رأيه على الآخرين بأي طريقة كانت، والآخرون يرفضونه بأي طريقة كانت، لعدم اقتناعهم به، إما لافتقار رأيه للأدلة العقلية الكافية، وإما نفورا من الطريقة التي سلكها صاحب الرأي لإبلاغ رأيه. ويعود ظهور مثل هذا المرض الاجتماعي الخطير إلى سببين اثنين:

❖ **الجهل:** الذي يجعل صاحب الفكرة يخبط خبط عشواء عند إبلاغها للناس، ويجعل العوام يتبعونه عند مسايرة مصالحهم، ويحاربونه عند معارضتها، ولك أن تتخيل إنسانا يسلك طريقين، ويتجه اتجاهين، ويتبع مبدأين، كيف تكون نتيجة تصرفه؟

❖ **النظر إلى الحياة من الداخل:** وهذا معناه أن يرى الإنسان تجارب الحياة منحصرة في مجالات محدودة، ويحاول أن يفسر كل شيء بتلك المجالات التي يعرفها، وهو لا يعلم بأن لكل حادثة حديث، ولكل مقام مقال – وأواصل على نفس المنوال فأقول: ولكل ساقطة لاقطة– وهذا المنهج يوقع صاحبه في الخطأ، كما أوقع الذئب في اختيار جذور القمح – كما روي في القصص الشعبي– لأنه ظن ما يصدق على البصل صادق على كل المحاصيل بما فيها القمح، والحديث قياس.

غير أن هذا المبدأ صحيح في أساسه لمن أحسن استعماله، وبوضوح أكثر: صحيح، لمن يستطيع أن يميز البطة من الدجاجة وهذا شيء صعب للغاية.

أراك تعجب من كلامي، لكن صدقني أنك إن استطعت أن تميز البطة من الدجاجة، فإنك إنسان عظيم جدا، ولابد أن هذا الكلام يسعدك كثيرا خاصة إذا علمت أنه صادر من **صخش** مثلي، لكن اكتم فرحتك حتى تفهم كلامي. فالتمييز

بينهما، لا يكون معزولا عن الحياة، بعيدا عن المقامات. وإليك المقام التالي مثالا، وليس هو أصعب الأمثلة:

لو مر مخلوق قريبا منك، فقال عقلاء الناس وجهالهم، وفقراء البشر وأغنياؤهم، وأذكياء القوم وأغبياؤهم: هذا الكائن دجاجة. وفُرِض على سكان تلك المنطقة القول بذلك، ومن خالف الجمهور عوقب عقابا ماديا أو معنويا، وكانت مصلحتك الشخصية تتفق مع كون هذا المسكين الغريب دجاجةً، وتختلف مع كونه بطة، كأن ينكشف سر من أسرارك الخاصة إذا كان بطة، فإن إجماع الجمهور، وقوة القانون والعادات الاجتماعية، وانجذابك نحو تحقيق مصلحتك، وغيرها من العوامل التي لم يتسن لي إحصاؤها في هذا المثال؛ تجعلك تقول وقد تؤمن بأن هذا الكائن دجاجة مع كونه في الحقيقة عكس ما ذهبت إليه.

ولذلك، من الصعب تمييز البطة من الدجاجة كما صعب – قديما – على أحد الفلاسفة الجهابذة الأفذاذ التمييز بين الغراب والعنزة مع أنها تطير.

ثانيا الاتفاق: يحدث أن تتكرر حادثة فتتكرر حادثة أخرى معها، فيظن الناس أن إحداهما سبب للأخرى وهو في الحقيقة مجرد اتفاق، ولا علاقة بينهما.

هلوسة مع النحاة ومصطلحاتهم:

وإليك بعض الأمثلة من النحو العربي لتعلم أن النحاة كانوا يفهمون ما يقولون، ولم يكونوا **أصخاشا** أمثالي:

مصطلح الفعل المضارع: يعتقد بعض الطلبة، أن معناه ما دل على الحاضر أو المستقبل، لكثرة وروده كذلك، ثم يتجه فكر بعضهم إلى نقد النحاة فيقول: ليس كل فعل يبتدئ بأحرف المُضَارَعة المجموعة في "أنيت" مضارعا، ويستدل بأحرف الجزم التي تجعل الفعل المضارع دالا على

الماضـــــي كقولك: لم يشبع، ولم يعلم هذا القائل أن فهمه قاصر، ولـــيس بـــين مصطلح المضارع وبين الزمن علاقة! وارجع إلى كتب جهابذة النحاة، ودقـــق النظر في كيفية استعمالهم المصطلحين (المضارع، المستقبل) فإنـــك ســـتجدهما منفصلين تماما. إنما المضارعة لها علاقة بالإعراب، فكل فعل معرب غير مبني فهو مضارع لأسماء الفاعلين في العمل والإعراب[1]، هذا شيء حـــدث نتيجـــة التكرار.

⬅ وقد يحدث الاتفاق نتيجة للتواقت، أي وقوع حدثين في وقت واحد مـــع كثرة المشابهة، وإليك مثالين من النحو العربي:

⬨ يقول النحاة: "كان" ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، مع العلـــم أن المبتـــدأ مرفوع دون وجود كان، وإنما قصد النحاة أن المبتدأ كان مرفوعا بحركة، وعند دخول كان ذهبت تلك الحركة وعوضت بحركة أخرى تشبهها، وليـــست هـــي الأولى.

⬨ ومن ذلك ما أشار إليه ابن جني في كتابه الخصائص في "بـــاب اللفـــظ يكون معك إلا أنه ليس بصاحبك" ومن الأمثلة التي ساقها، اتفاق ورود الجار مع ياء المتكلم، فيلتبس على الناظر شأن الكسرة فيعتقدها حركة إعراب ناتجة عـــن وجود حرف الجر، ولا يحضرني الآن المثال الذي أورده ابن جنـــي بالـــضبط، ولكنني أورد مثالا ينوب عنه ويغني عن نقله حرفيا. تقول: نظرت **إلى صخشِي** المحترم، بكسر الشين، فتظن أن الكسرة ناتجة عن دخول "إلى" على **صخـــشي** ولكنك تقول كذلك: امتلأ **صخشي** غضبا، وأُهين **صخـــشي**، وضـــرب الزمـــان **صخشي** ضربة قاسية، وفي كل الحالات (الرفع، النصب، الجر) تبقى الكـــسرة

---

1 – ينظر: سيبويه، الكتاب، ج3، ص05.

ثابتة مما يؤكد أنها ليست لحرف الجر في حالة الجر، فحالة مثل هــذه تــؤدي بعامة الناس إلى الخطأ والوقوع في حفر الضلال.

مشابهة قواعد النحو للواقع:

قد تقول: هذه الأمثلة المقتبسة من النحو العربي، وليست من الحيــاة فــي شيء، فكيف تستطيع أن تثبت أنها تصدق في الواقع كما صدقت في النحو؟

❖ فأقول: كل إنسان يفرق بين البطة والدجاجة، يعلم أن ما قلته يتحقق في الواقع كما تحقق في النحو. وسؤالك هذا سحب جزءا كبيرا من ثقتي فيــك، وجعلني أشك في قدرتك على الفهم، غير أنني أعجبت بتتبعك كلامي، وحرصك على فهمه، والعمل على التأكد من صدقه، وهذه الخلال جعلتني أبقيك صــديقا، وأصبر على أسئلتك التي كنت أظنك غنيا عنها بفهمك السريع، ومتجــاوزا لهــا بقدرتك على النقد والتمحيص.

غير أنني أجيبك فأقول: ليكن رجل وسط مقبرة ذا حاجــة، فــي وقــت تستجاب فيه الدعوة، وكان صادق الدعاء ملحا فيه، فدعا الله في تلــك اللحظــة فاستجاب الله لدعائه، فإنه يظن أن الاستجابة كانت بسبب وجــوده قــرب ذلــك القبر، خاصة إذا أصابه مكروه أو احتاج إلى شيء بعد الدعاء الأول، فعاد إلــى ذلك القبر ودعا الله مرة أخرى، فكانت الاستجابة، فإنه يجزم غير شاك في أمره أن للقبر بركات. وهذا ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية رحمه الله[1]، فإنك تلاحــظ أن اتفاقا وقع بين تحقق شروط الاستجابة وكون الداعي أمام القبر. وهي الحالــة

1- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق يوسف علي بديوي، دط. الجزائر، بيروت: دس، دار الفكر، دار ابن كثير، ص34.

نفسها الموجودة في النحو العربي في المثال الذي أشرت إليه في توافق حـــرف الجر وياء المتكلم في احتياجهما إلى كسرة في الاسم المفرد أو جمـــع التكـــسير الذي فصله ابن جني في الباب المشار إليه سابقا؛ وباب الاتفاق هذا، باب واســـع يؤدي إلى كثير من الأخطاء في المجالات العلمية، كما يتسبب فـــي كثيـــر مـــن المشاكل في الحياة اليومية، وفيه بعض الطرائف والنكت، فـــإن شـــئت المزيـــد فراجع كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي رحمه الله، فإنه قـــد أشـــار إلى هذا الموضوع بشيء من التفصيل، ولا تنتظر مني المزيد لئلا أضجر مـــن الكلام فيما لا أعرف والله الموفق والهادي إلى ما فيه الخير.

ثالثا التعميم: يعتقد عامة الناس أن الظاهرة إذا صدقت في أغلب الأحيان، أمكن تعميمها على البقية دون التأكد من صحتها أو خطئها، وهذا المنهج لـــيس صحيحا مع إطلاقه، لأن لكل قاعدة استثناءات يجب الانتباه إليها، وإلا لحكمنـــا على البريء بجريمة غيره، وللكسول باجتهاد جيرانه، وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان، ومن الكلام المشهور عند العامة أن "الزيادة خير من النقصان" وأمثلـــة صدق هذا الحكم كثيرة، كأن تقول: لئن يأخذ المسافر زادا أكثر من حاجته خير من أن يأخذ ما لا يكفيه، لأنه إذا أخذ فائضا من الزاد استفاد هو، وأفاد زمـــلاءه في السفر، فإن لم يكن معه زملاء فحمل الفائض من الزاد أقل ضررا من الجوع الذي قد يؤدي به إلى الهلاك، وهذا رأي صحيح وقول لم يجانب الصواب. لكن ليس كل زيادة خير من النقصان، بل سأذهب إلى أكثر من ذلك فأقول: **كل زيادة في الحياة يقابلها نقصان لا محالة**، فعندما تشتري سلعا، فإنك تزيد في امتلاكك لجنسها، لكنك تنقص من المال الذي كنت تملكه، وإن عملت على زيادة رصيدك المالي، فإنك إما أن تنقص مما كنت تملك من السلع ببيعهـــا، وإمـــا أن تعمـــل بجهدك فتكون قد أنقصت من وقتك وضحيت براحتك، **أما أن تكسب شيئا دون**

أن تضيع شيئا فهذا ممتنع، ومثلك في ذلك كمثل متحرك على محيط دائرة، فإنه كلما ابتعد عن نقطة من جهة اقترب منها من الجهة الأخرى، وليس بمقدوره أن يبتعد منها دون أن يقترب أو أن يقترب دون أن يبتعد. وفي هذا الباب يقول بيدبا حسب ما نقله عنه ابن المقفع رحمه الله: «إنه لن يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه، وإما بوضيعة في ماله، أو بوكس في دينه، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب[1]» ويقول في موضع آخر: «... فهي إن كملت في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمته إلى سوء حظ في دنياه أو إلى نقص من عقباه[2]» ولم يرد بهذا القول إلا أن يبين أن سنة الحياة مبنية على الزيادة من جهة، والنقصان من جهة أخرى. **فالحياة تجارة: بيع و شراء، أخذ وعطاء، غير منفصل جانب من الجانبين عن الآخر**، قال تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين﴾ (البقرة، الآية 16)، ولنعد إلى ذكر باب من النحو يشاكل هذه الفكرة وينحو منحاها:

عقد ابن جني في كتابه الخصائص بابا سماه: "باب في التام يزاد عليه فيعود ناقصا" قال: «وذلك قولك: قام زيد، فهذا كلام تام، فإن زدت عليه فقلت: إن قام زيد. صار شرطا واحتاج إلى جواب[3]» ونقله عنه السيوطي في الأشباه والنظائر في النحو، فراجعه في أحد الموضعين أو في كليهما. وإنما أراد ابن جني من خلال تفسيره هذا الباب إثبات أن الزيادة لا تؤدي في كل الأحوال إلى الزيادة، وإن كان هذا هو الأصل في اللغة العربية، حسب ما قرره اللغويون

1- عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، بعناية محمد موهوب بن حسين، دط. الجزائر: دس، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص21.

2- نفسه، ص16.

3- ابن جني، الخصائص، ج2، ص272.

والنحويون على حد سواء، فقولك: أقرأ أقل معنى من قولك: لأقــرأن، وقولــك: رجل أقل عددا من قولك: رجال، وقولك: رأيت **الصخش**. أقل توضــيحا مــن قولك: رأيت **الصخش** واقفا وقفة تليق بسيادته. وهكذا كلما زدت في الكلام، زاد المعنى فأراد ابن جني أن يناقض هذه الفكرة بالباب الذي أشرت إليه سابقا، وثمة باب آخر يمكنني أن أتحايل عليك لأخدعك وأضعه في هذا السياق، وهو "بــاب الناقص يُنقص منه فيعود تاما" ومثل ذلك: الجمع الذي يفرق فيه بــين المفــرد والجمع بحذف التاء: كشجرة، وتمرة، وحجرة تقول: شجر وتمر وحجر، وهكذا، فبنقصان التاء زاد المعنى بكثرة العدد، وكذلك أمثلة ابن جنــي صــالحة لهــذا الموضع، فبحذف ما أضيف إلى التام فجعله ناقصا يعود تاما كما كان.

هذه فلسفتي وهذه أفكاري، ولذلك كنت **صخشا** وبغيرها ما كنت لأكون... سأتركك تفكر قليلا فيما قلت، ريثما نعود من رحلتنا.

تعلم المكيدة:

وفي هذه اللحظة أنقلك إلى عالم آخــر وســأعود إلــى قــولي الكبيــر، واختراعي العظيم، وأثناء الرحلة معي عليك أن تكون صامتا ومفكــرا، حتــى تستفيد من الرحلة، وتستمتع بنشوة التفكير، وهذه الرحلة تبدأ من قولي:

إذا أردت أن تكون عظيما فامش مع العظماء، واهــتم بمواضــيعهم العظيمة، واهجر كل ما ينقص من عزيمتك، أو يقدح في شخصيتك، فــإن لــم تستطع المشي مع العظماء لبعد المسافة بينك وبينهم، أو لانعدام الفــرص التــي توصلك إليهم، فاقرأ كتبهم وسيرهم، ثم تخلق بأخلاقهم، واتبــع ســنن حيــاتهم، وجاهد نفسك في تقليدهم، حتى تصبح هذه السنن ملكة في نفسك يصعب عليــك فراقها آخِرا، كما صعب عليك اكتسابها أولا.

✍ إذا أردت أن تكون سعيدا في ظروف ظالمة، مرتاح البال وسط محيط جائر، نائما وسط ضجيج مزعج، قانعا وسط فقر مدقع. الناس يبكون وأنت ضاحك، وهم يتوجعون وأنت مستمتع، فرح عند فرحهم، وفرح عند حزنهم **فعليك بالحماقة فإنها لا تضيع أملك.**

✍ إذا أردت أن تكون كاتبا أديبا، فعليك أن تختار شيئا حقيرا أو غير حقير، دنيئا أو غير دنيء، وتكتب عنه دون أن تذكر اسمه، لأن **الشيء إذا علم هان، وإذا بذل قل ثمنه، وأصبح غير ذي بال،** وهذا أمر في غاية الأهمية. اترك القارئ يفسر كلامك حسب فهمه ولا تفسر له شيئا فينكشف أمري وأمرك، ألم تر إلى النقاد كم أوّلوا من بيت شعر، لو حضر أصحابها ما فهموا ما قيل في أشعارهم، ولما وصلت عقولهم إلى غوامض تفاسيرهم، إلا بعد قراءة الكتب المؤلفة في شرح أشعارهم، واطلاعهم على التخريجات الموضوعة في سبك أبياتها، أوَ تظن أن أبا نواس كان يقصد ما ذهب إليه بعض الشراح في تخريج بيته الذي يقول فيه:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ** ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر؟

ألم تر ما أصبح يكتب من كلام ويسمى أدبا؟ أليس هذا حافزا لي ولك لأن نصبح أدباء؟ بل هو حافز لنا و**لأمم أمثالنا** للدخول في سوق الأدب، والمهم المشاركة كما قيل لي ومازال يقال لك. ولعلك تقول:

● هذا كلام يورث العلم ولا يوصل إلى الفهم، فهلا فصلت بعد أن أجملت، وصرحت بعد أن لمحت، وأوضحت بعد أن قطعت من الغموض شوطا، وخضت من المعاني ربعا ونصفا، فجعلتني أتساءل عن معنى كلام كنت في غنى عن سماعه، وأصبو إلى احتراف مهنة كنت تاركها لأهلها؟

فأقول: ليس لك الحق أن تتساءل فضلا على أن تسأل، حتى أكمل كلامي، غير أنني أبتليتُ بأسئلتك كما ابتليتَ بكلامي، وليس لنا مفر إلا أن أصبر عليك

وتصبر علي، **وبهذه الخلة يتفاهم الجيران، ويتجاوزون المشاكل التي يحدثها النساء والولدان**، ولذلك أجيبك على سؤالك بصياغة مثال يتسق مع ما قلت، وبالمثال يتضح المقال. أرسلت هدية إلى أحد أصدقائي الأعزاء بمناسبة ترقيته وكتبت إليه رسالة هذا بعضها: «... إذا نزل عليك ضيفا فأكرمه، فإنه ليس بمقدورك أن تستغني عنه، واعلم أنه لا يترك أخاه، ميزة لا تفارقه حتى ينتهي أجله من الحياة، فعليك أن تشركه أخاه الضيافة أو لا تدعوه إطلاقا، وليكن نظرك ثاقبا، وحسك يقظا، لتعرف الأخ من أخيه الذي يكاد يشاكله، فتجلس كلا منهما مكانه اللائق به، وبذلك تكون قد عاملته كما يحب وفي ذلك خير كثير لك فلا تتردد، أما إذا أنزلته بيتك، ولم تجعله محل اهتمامك، ولم تضعه موضوع عنايتك، سكت ولم يتكلم، فإذا جلست وسط جماعة، وبدأت تمد الحديث تارة وتجذبه تارة أخرى، وتأتي به نثرا وشعرا، عربيا وأعجميا، علميا وأدبيا، قديما وحديثا، وخير الكلام ما كان لحنا، تسلل من بين يديك، وهمس في أنوف القوم همسا خفيفا، فسمعوا بأنوفهم ما لم تستطع آذانهم سماعه، وشغل القوم بهمسه عن كلامك، وبعض الأنوف أشد سماعا من الآذان. عند ذلك؛ ترى القوم يتسللون، وإلى بيوتهم ينصرفون، دون أن يستفيدوا من كلامك، أو أن يعتذروا عند الانصراف من أمامك، واللوم كله يعود عليك لا على المسكين، فهو لا يهمس دون استشارتك، ولا يتكلم إلا رهن إشارتك، فها أنا قد دللتك على أخلاقه، وأعنتك على معرفة عاداته، فعليك أخذ العلم قبل العمل، والكيس من لم يقع فيما وقع فيه حمقى القوم وأغبياؤهم[*]».

---

* – قد أتى الجاحظ بأمثلة في البيان والتبيين تشبه ما نحن بصدده، قال: «هذا مثل القائل حين سئل عن رجل في تزويج امرأة فقال رزين المجلس نافذ الطعنة فحسبوه سيدا فارسا فنظروا فوجدوه خياطا» (البيان والتبيين ج1، ص337، 338) فانظر إلى قيمة الرجل كيف كانت قبل فهم النص، وكيف صارت بعد فهمه، تعلم ما أقصده من جعل السامع لا يفهم كلامك.

اقرأ هذه الفقرة مرات ثلاث، ثم حاول أن تفهم معناها، وتدرس الشخصية التي حدثت صديقي عنها، ثم اعلم أني كنت أحدثه عن "الجوارب" وأنها لا تصلح مفردة، وأنها توضع في القدمين، فإذا وضعت في غيرهما لم تصلح، وأنها إذا اتسخت تأذى بها من يجالس صاحبها، وسقط قدره من أعينهم، فلم يسمعوا كلامه.

وبعد أن علمت المعنى الحقيقي للنص، ارجع إليه مرة رابعة فستجده ليس بنص، فكيف يكون أدبا؟

وإنما هو نوع من الهلوسة بلا معنى، ولو تركت كلامي بلا تفسير، فإنك ستفسره تفسيرات أعجز أنا **صخشيا** عن فهمها فضلا على أن أكتب مثلها، فالغموض يجعل النص للجمهور، بدلا من جعله للكاتب، وليس في مقدور واحد أن يفكر أحسن من أجيال وأجيال، لأن الكاتب يعيش في عصر واحد، والقراء يعيشون في عصور كثيرة، فتأمل.

هلوسة في اللغة:

هذه الفكرة التي دللتك عليها، وأرشدتك إليها، وبينت لك سبيلها، لا توافق خصائص اللغة، ولا تتفق وفلسفة الكلام بين العالم والمتعلم، والسائل والمسؤول، والبائع والمشتري، والرئيس والمرؤوس... لأن اللغة لم تبن على الإبهام والغموض، وإنما بنيت على الإيضاح والإفهام، والبيان والتبيين، إذ المقصود منها التواصل وتبادل الأفكار، ولذلك قال سيبويه: «...إذا قلت: عبد الله منطلق، تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر... فإذا قلت: كان زيد، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنما ينتظر الخبر فإذا قلت: حليما فقد أعلمته مثل ما علمت... وتقول: أسفيها كان زيد أم حليما؟ وأرجلا كان زيد أم صبيا؟ تجعلها لزيد، لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده، كما حدثته عن خبر من هو معروف

عندك. فالمعروف هو المبدوء به[1]» والشاهد في هذا القول أن الكلام يوجه لإفادة المستمع، ويتماشى مع معلوماته، وليس المتكلم هو الذي يتحكم في طريقة بناء الكلام، وبهذا تحل إشكالية من الذي يصنع دورة الخطاب؟

غير أن فكرة الإيضاح هذه، سارية في اللغة، ولذلك وُجِدت عدة وسائل في اللغة العربية لإزالة اللبس، فعندما تسمع: قرأ الصخشُ كتاباً، أو قرأ كتاباً الصخشُ، يتضح لك المعنى انطلاقا من حركات الإعراب، وليس من التقديم والتأخير، وإذا سمعت: الصخشُ مستريحٌ، أو مستريحٌ الصخشُ، فرقت بين المبتدأ والخبر بالنظر إلى مسألة التعريف والتنكير، وليس بالنظر إلى الحركات، وإذا قرأت: رأى موسى عيسى، نظرت إلى التقديم والتأخير، وإذا قلت: كلم هذه هذا، عُلِم أن الفاعل هو اسم الإشارة "هذا" لأنه مذكر مطابق للفعل، وإذا قيل: كلم هذا هذا، وكان أحد اسمي الإشارة دالا على حيوان عرف أن اسم الإشارة الدال على الإنسان هو الفاعل، والدال على الحيوان مفعول به، وإذا قيل: كلم هذا هذا، وكان المقصود إنسانين نُظر إلى حركة يد المتكلم، فالمشار إليه أولا فاعل والمشار إليه ثانيا مفعول به، وهذا ما فصل فيه ابن جني في "باب الإعراب" فراجعه في موضعه ففيه فوائد كثيرة إن شاء الله.

ومن الوسائل التي تستعملها اللغة لإزالة الإبهام، استعمال علامة التأنيث للتفريق بين المؤنث والمذكر؛ ومن الأمثلة على هذه القاعدة: كبير، كبيرة. عاقل، عاقلة. كاذب، كاذبة، فإذا كانت كلمة مؤنثة وليس لها مذكر من لفظها، استغنت اللغة العربية عن استعمال علامة التأنيث في إطار الاقتصاد اللغوي، مثل: مرضع، حائض، حامل وغيرها. ولهذه القاعدة استثناءات كقول العرب للرجل ضيف وللمرأة ضيف، وللرجل زوج وللمرأة زوج، وهلم جرا، وهذه

1- سيبويه، الكتاب، ج1، ص47، 48 .

الكلمات كأنها لا تدل على أشخاص وإنما تدل على حالات وقع فيها أشـــخاص، إلا أنها تحتاج إلى جمع وبحث ثم إلى تفسير وتعليل، وما فكر العاقل إلا وجد إما أصاب وإما أخطأ، ولمجتهد مخطئ خير من كسول لا مخطئ ولا مصيب، والله يهدي إلى سواء السبيل.

كما أن الجمع وعلاماته تزيل الالتباس من اللغة، فإذا اتفقت لفظتـــان فـــي الجمع غير العرب جمعهما فجمعوا واحدة بطريقة وجمعوا الأخرى بطريقة ثانية، كجمعهم كلمة بيت المقصود به الدار بيوتا، وجمعهم كلمة بيت المقصود به بيـــت شعر أبياتا، مع أن سيبويه جمع بيت الشعر بيوت وهذا مخالف للشائع[1]، وجمعهم لكلمة عام بمعنى سنة على أعوام، وجمعهم كلمة عم على أعمـــام وكلمـــة عـــام المقابل لخاص على عوام، حتى لا يلتبس جمع بجمع كما لم يلتبس مفرد بمفرد.

وفي هذا الصدد تطرح مسألة التضاد والاشـــتراك اللفظيـــين، غيـــر أن التطرق لموضوعهما يفضي بنا إلى الخروج من الموضوع، وقد يـــدفعك إلـــى الملل والجبن والبخل والكسل، فلنتركه لفرصة أخرى إن سنحت فسنعود إليه في آنه إن شاء الله، وإن لم يكن ذلك فما قطعت لك عهـــدا، وعليـــك أن تـــشاركني التفكير، وتفهم ما أشرت إليه إشارة أو لمحت إليه ولم أصرح. واعلم أن ما بينته في هذه الملاحظة المختصرة، والكلمات المبعثرة، مازال يحتاج إلـــى بحـــوث، يكون أهلها متفرغين، فيعرفون أسرار هذه اللغة التي شـــرفها الله بـــأمرين: أن اختارها ناقلا لكتابه، وأنطق بها خاتم أنبيائه. وبهذين الخلتـــين فاقـــت اللغـــات، ودحضتها جمالا وخلودا، فكفاها بهما عزا وفخرا، غير أن أهلها اشتغلوا بغيرها، عندما رأوا الزمان أعطى زمامه للغات أعجمية بإشرافها على مخترعات حديثة، وآلات متطورة، وهذا هو الخذلان بعينه، لأن الأمة تبنى على مقومات عدة من

---

1 – سيبويه، الكتاب، ج3، ص137.

بينها اللغة التي تحفظ تاريخها وتبقيها متصلة بأسلافها، فإن أرادت النهوض فلا اختيار لها إلا لغتها شاءت ذلك أم أبت.

دحض الأكذوبة بالعودة إلى الأصل:

نعود الآن إلى مناقشة قولي: "باب الناقص يُنقص منه فيعود تاما" وهذه المرة أنا الذي أسأل: هل تعتقد أنه صحيح؟ وهل تعتقد أن الأمثلة التي استدللت بها صالحة لهذا الموضع؟

وأجيبك قائلا: لا داعي لأن تفكر، فأنا قد كذبت أكذوبة وكدت أصدقها، غير أني أحاول أن أرد المياه إلى مجاريها، وأعيد لكل ذي حق حقه، وذلك أن من صدق ما قلت آنفا فإنه لم يفهم بابا مهما من النحو، وهو ما يسمى "بالأصل والفرع" وهذا الباب بني عليه الفكر العربي في النحو، وأصول الفقه، والفلسفة خاصة، فلا تكاد تجد للعلماء منطلقا إلا بعد أن يضبطوا الأصل فيتضح لهم الفرع ويسهل عليهم التقنين لما أرادوا دراسته. ولذلك قال ابن جني في رده على من اعتقد فساد علل النحويين: «لو بدأ الأمر بإحكام الأصل لسقط عنه هذا الهوس وذا اللغو[1]» فعليك أن تفهم هذا الباب فهما محكما حتى تستطيع التمييز بين البطة والدجاجة في الفكر العربي، ومع هذا فقد ادعى بعض الدارسين المعاصرين – رحمني الله وإياك وإياهم– أن هذا الباب غامض إذ من غير الممكن تحديد الأصل من الفرع، وسأوضح ما حضرني في هذه العجالة هذا الباب من النحو بأبسط الأمثلة وأجملها حكمة وأدبا:

1– ابن جني، الخصائص، ج1، ص185.

فأنت عندما تقول: سمع **الأَصْخَاشُ** كلام **الصَخْشِ** وقام من بينهم **صَـخْشٌ** فسب **الصَخْشَ** المتكلمَ ووصفه بأنه أجبن من **صَخْـشَةٍ**. فإنـك قـد اسـتعملت مجموعة من الألفاظ أصلها واحد وهي:

الأصخاش، الصخش، صخش، صخشة، وتلاحـظ كـذلك: أن الحـروف الأساس في هذه الكلم هي: **(ص خ ش)**. وأن الكلمة الوحيدة التـي اسـتطاعت أن تُكَوِّنَ معنى مفهوما بهذه الحروف دون الاستعانة بغيرها هي كلمة "**صخش**"، أمـا الكلمات الأخرى فهي كلمة **صخش** مع دخول حروف أخرى في بـدايتها أو فـي نهايتها أو في كليهما، ولهذا فكلمة "**صخش**" هي أصل الكلمات المستعملة والمشاركة لها في حروفها، وهي كلمة مفردة نكرة مذكرة، وبذلك يتضح أن: الإفـراد أصـل والجمع فرع عليه، والتنكير أصل والتعريف فرع عليه، والتذكير أصل والتأنيـث فرع عليه، وحتى نتجاوز النحو إلى الدراسات اللسانية الحديثة فإن الأصل يؤدي في بعض معانيه إلى ما يسمى بالمونيم، أما من الناحية التركيبية فـإن الكلمـة أصـل والجملة فرع، وفي الأفعال –من الناحية الإعرابية – البناء أصل والإعراب فـرع عليه، وفي الأسماء الإعراب هو الأصل والبناء فرع عليه، وهكذا تـسري جميـع أبواب النحو. وهذا الباب مستغل عند النحاة في باب التعليلات النحوية خاصة، وهو باب في غاية الأهمية. قال سيبويه رحمه الله وإياي: «اعلم أن النكرة أخف علـيهم من المعرفة، وهي أشد تمكنا، لأن **النكرة أول** ثم يدخل عليها ما تعرف به. فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة.

واعلم أن الواحد أشد تمكناً من الجميع، لأن **الواحد الأول** ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجميع ما جاء على مثال ليس يكون للواحد نحو مساجد ومفاتيح.

واعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث، لأن **المـذكر أول** وهـو أشـد تمكناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أن "الشيء" يقـع علـى كـل

ما أخبر عنه من قبل أن يعلم ذكر هو أو أنثى؟ والشيء ذكر فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخف عليهم وتركه علامة لما يستثقلون[1]». فهل يبقى بعد هذا الشرح من غموض؟

وقبل أن أنهي كلامي عن هذا المبدأ (الأصل والفرع)، أشير إلى أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمبدأ الخفة، والذي قال عنه ابن جني في الخصائص: «اعلم أن علل النحويين – وأعنى بذلك حذاقهم المتقنين لا ألفافهم المستضعفين – أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين، وذلك أنهم إنما يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس[2]» فابذل جهدك لتفهم المبدأين: مبدأ الفرع والأصل ومبدأ الاستخفاف والاستثقال، ثم افهم العلاقة بينهما والتي تتلخص في خفة الأصل وثقل الفرع، فتأمل.

أما في الفلسفة فإن العدم أصل والوجود فرع عليه، والفقر أصل والغنى فرع عليه، والجهل أصل والعلم فرع عليه وهكذا، وعندهم الانتقال من الفرع إلى الأصل أسهل من الانتقال من الأصل إلى الفرع[*]، فإنه يسهل عليك لتصبح جاهلا بتركك طلب العلم كما قال الجاحظ رحمه الله وإياي، وليس من السهل عليك لتصبح عالما[3]، وقس على هذا الكلام.

أما في أصول الفقه، فإنهم يستعملون هذا المبدأ في قضايا فقهية مثل قولهم: الأصل في العبادات التحريم والأصل في الأشياء الإباحة، أي كل عبادة ليس فيها نص فهي محرمة، وكل شيء لم يرد نص على تحريمه فهو مباح.

---

1 – سيبويه، الكتاب، ج1، ص22.

2– ابن جني، الخصائص، ج1، ص48.

* – ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة، ضبط محمد الإسكندراني، ط2. بيروت: 1419هـ 1998م، دار الكتاب العربي، ص322.

3– ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص86.

وغير ذلك من النصوص، وارجع إلى كلامهم فإنك ستجد كقولهم: اتفق الأئمة على الأصول ولم يختلفوا إلا في الفروع أو كلاما كهذا.

لنعد الآن إلى مناقشة قولي فأقول: حسب ما بينته في الكلمات السابقة، فإن وضع القواعد النحوية يجب أن ينطلق من الأصل ثم ينتقل إلى تعميمها على الفروع، والباب الذي اقترحته سابقا ليس أصلا، لأن الأصل ما كان تاما بذاته، فابن جني هو الذي انطلق من الأصل فقال: "باب في التام يزاد عليه فيعود ناقصا" لأن الأصل هو أن تؤدي الزيادة إلى الزيادة، فلما خرج شيء عن الأصل نبه إليه ابن جني، أما أنا فقد خرجت عن المنهج النحوي العربي، ومن هنا فإن كثيرا من طلبة النحو يخطئون بوقوعهم في هذا الفخ، ومن الأمثلة على الأخطاء الناجمة عن عدم الفهم الدقيق لقضية الأصل والفرع الخلط بين خبر النواسخ، والحال.

وإليك الجملتين التاليتين:

- كَانَ **الصَّخْشُ** مُسْرِعاً.
- جَاءَ **الصَّخْشُ** مُسْرِعاً.

فإنك تلاحظ أن للجملتين بنية تبدو متشابهة إلى حد كبير، فمن المفروض أن يكون للجملتين إعراب واحد، وبأسلوب أدق وأوضح: إما أن يعرب (كان- جاء) فعل ماض مبني على الفتح. و(الصخش) فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، و(مسرعا) حال منصوبة وعلامة نصبها الفتحة الظاهرة على آخرها.

وإما أن يعرب (كان – جاء) فعل ماض ناقص مبني على الفتح، (الصخش) اسم (كان – جاء) مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، (مسرعا) خبر (كان – جاء) منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

غير أن النحاة فرقوا بينهما وقالوا: (جاء) فعل تام، و(كان) فعل ناقص، فما هو المبرر الذي استندوا إليه وما هي الحجج التي بنوا عليها قاعدتهم؟ والجواب عن هذه المسألة ينقسم إلى قسمين:

❶ لاحظ أن **أصل** الجملتين مختلف، فالجملة « جاء **الصخشُ** مسرعا » أصلها **«جاء الصخشُ»**. ثم أضيف إليها اللفظ (مسرعا)، والجملة **«كان الصخشُ** مسرعا**»** أصلها **«الصخش مسرع»**. ثم دخل عليها الفعل الناقص كان. وليس من المعقول أن يكون أصلها **«**كان **الصخش»**. ثم أضيف إليها "مسرعا" فنعتبره حالا. فأصل الجملتين مختلف؛ واحدة اسمية والأخرى فعلية، وسبب الوقوع في هذا الخطأ هو عدم الرجوع إلى **الأصل** فتأمل.

❷ الكلام في العربية مقسم من حيث الزمن والحدث إلى أربعة أقسام:

❖ كلمة ليس لها حدث ولا زمن وهي أغلب الأسماء والضمائر والحروف– وكلمة لها حدث ولها زمن وهي كل الأفعال التامة مثل جاء– وكلمة لها حدث وليس لها زمن وهي المصادر– وكلمة ليس لها حدث ولها زمن وهذا الصنف الأخير سماه النحاة الأفعال الناقصة أي ناقصة الحدث، فهي لا تحتاج إلى فاعل.

غير أن قاعدة الأصل والفرع قد تنقلب، فيصبح الفرع أقوى من الأصل، وقد نبه ابن جني إلى هذه الفكرة في كتابه الخصائص في **«**باب من غلبة الفروع على الأصول**»** وقال عنه: **«** هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في معانى الإعراب، ولا تكاد تجد شيئا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة[1]**»** فراجعه في موضعه من الكتاب.

1– ابن جني، الخصائص، ج1، ص300.

أكذوبة المبادئ:

دعني في هذه اللحظة الهادئة أسأل نفسي – ولا بأس أن تشاركني الإجابة – سؤالا يبدو شيئا ما، ذا أهمية وهو: هل الحقيقة غامضة؟ فإن كان الأمر كذلك فهل يكفي أن أتخذ مبدأ وأعتبره هو الحقيقة، وأكون بذلك قد توصلت إلى جزء منها ما دمت ثابتا على مبدئي؟

ثم أجيب نفسي بنفسي – ويصح لك أن تجيب معي أو أن تعارضني، فإن كانت لك ملاحظات فخذ قلما وورقة وقيدها ما دامت في متناولك– قائلا: أما السؤال الأول فلن أجيبك عنه، لصعوبته ولعدم وصول مستواي المتواضع للإجابة عن هذا النوع من الأسئلة المركزة جدا، وأما السؤال الثاني فلا بأس أن أنصب نفسي لمحاولة الخوض في هذه القضية، قضية «المبادئ الثابتة» فأقول: كم تكون عظيما لو تختار مبدأ صحيحا وتلتزم به، غير أن الأمر في غاية الصعوبة، ولهذا تجد الفرقة المدعية لمبدأ تحتوي على أناس يتشابهون في المظهر من حيث ملبسهم، ومشيتهم، وطريقة كلامهم، ومكان جلوسهم، وأسلوب معاملتهم للناس؛ إلا أنهم – في الحقيقة – ليس كلهم صاحب مبدأ، إنما الظروف التي يعيشون فيها ساعدتهم – إن لم أقل أجبرتهم – على أن يكونوا كذلك، ولو تغيرت الظروف لتغير كثير منهم، ولم يثبت إلا صاحب المبدأ الذي لا يبالي بمصالحه الشخصية عند تحقيق هدفه الذي آمن به. والباقون المتتبعون للمصالح الذين شعارهم «حيث كانت المصلحة نكون» لا يضحون بمصالحهم الشخصية مهما ادعوا الالتزام بالمبدأ.

ومما يُؤسَف له، أن المراهقين خاصة، والجهال عامة، يقعون ضحايا لهذا الصنف من الناس، فيستغلون نواياهم البريئة، وعقولهم الصغيرة، ليجعلوهم وسيلة لتحقيق مصالحهم تحت ستار المبدأ، ولا ينتبه الضحايا ولا يقبلون

النصيحة من غيرهم، حتى يروا – بأعينهم – خروج هذا الصنف عن المبدأ الذي اتبعوهم من أجله، وادعاء مبدأ مناقض تماما لما كانوا عليه، حينها يعلم المساكين أنهم كانوا في سكرة غافلين.

وعلى هذا الأساس؛ قلما تجد شخصا ملتزما مبدأ واحدا وهو على قناعة بما هو عليه، والبقية إما أهل مصالح وإما وسيلة لأهل المصالح فتنبه. فإذا كان الأمر كذلك، فإنك عندما تختار مبدأ واحدا وتعتبره هو الحقيقة، فإنك وقعت في خيارات محدودة ليس أمامك إلا أن تكون في واحدة منها وهي:

– إما أن يكون مبدؤك هذا الذي اخترته خاطئا، وبذلك لم تصل إلى الحقيقة التي نشدتها، وإما أن يكون صحيحا، لكنك غير متأكد مما اخترت طالما لم تسلك طريقك متيقنا مما أنت فيه. وفي هذه الحالة، ثباتك على مبدئك غير مضمون، وغالبا ما يتميز أصحاب هذا المنهج بالتقوقع على ما عندهم، فلا يقرأون ما كتب مخالفوهم خوفا من أن يقنعوهم بما يخالف مبادئهم، وهم بذلك يصرحون أنهم غير متيقنين مما هم عليه وإن لم يقولوا ذلك بألسنتهم، ولكن **لغة الحال أصدق من لغة اللسان** كما بينت ذلك في بداية هذه الصفحات.

– وإما أن تكون مجرد وسيلة للمحتالين عليك لتحقيق مصالحهم، وإشباع رغباتهم ولذاتهم، وأنت سَاهٍ غافلٌ نائمٌ، وهذا ما أخشاه، لأنك متى وقعت في هذه المنزلة انعدم معنى وجودك في الحياة، وزالت رسالتك من الوجود، وليس بأضر عليك من الموت الذي يريح البشر من المتاعب والمصاعب.

وفي الحالتين لم تبلغ الحقيقة ولم تقترب منها. لكن لا تجعلني أيأس من البحث والمحاولة، وابق بجانبي حتى تشاركني لذة النجاح، وتقاسمني نشوة الفشل، فهذه الحياة وهذه سنة الله في خلقه:

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه

بل عليه أن يتمنى ما يظن أنه يمكنه إدراكه، فإن لم يكن، فليعلم أن الخلل ليس في الغاية وإنما في الطرق التي سلكها لتحقيقها، فليعد النظر فيهـــا ليـــصلح موطن الخلل أو ليستبدلها بغيرها، فإن ظن أنه استعمل أحسن الطرق، وسلمنا له بذلك، فلا بد أن سبب الفشل في الجهد المبذول في استعمال تلك الطريقة، إما أن يكون غير كاف وإما أن يكون أكبر مما يلزم، وفي كلتا الحالتين لا تنفع الطريقة وإن كانت سليمة.

الغاية والقيمة:

اعلم أنه لإنجاز عمل ما، **يستلزم من الشخص أن يعرف الغاية من ذلـــك العمل، وأن يعرف قيمة الغاية التي يعمل من أجلها**، لأنه إذا عمل ولـــم يعلـــم القيمة الحقيقية لغاية ذلك العمل، تراجع عن غايته بمجرد اصـــطدامه بأصـــغر عائق يواجهه في الطريق، ولا بأس أن أمثل في هذا المقام لتوضيح هذا الكـــلام – وإن كنت أعلم أنك تفهم كلامي، وتعرف هذه المعاني بداهة، ولكن ماذا نفعل وقد حاولنا ففشلنا غير أن نتبادل أطراف الحديث لنتناسى سويا صدمة لم نكـــن نضعها ضمن مخطط مشروعنا – بالرجل الذي يعبـــد الله، لأنـــه رأى النـــاس يفعلون ذلك، فهذا لو عرضت له الدنيا أحضانها لألهته عن عبادته، ولو واجهته بوجه عبوس وقاسى المتاعب لتنازل عن عبادته أيضا منشغلا بحل تلك المشاكل وإبعاد متاعبها، لأنه لم يقدر الله حق قدره، فلم يعلم غلاء جنته، ولم يعلم عظـــيم عذابه، فاختار بجهله نعيما أقل من نعيم الجنة، وخاف عذابا أقل من عذاب النار والله المستعان.

إذن **الاختيار غير كاف حتى يضاف إليه الاقتناع والاقتناع لا يكون حتـــى يعرف صاحب الاختيار قيمة ما اختاره حتى يؤثره على ما دونه**، وفـــي هـــذا

السياق يقول العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه الجواب الكافي: «كمال الإنسان مداره في أصلين معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه[1]» وهذه العبارة المختصرة تزن جبالا وجبالا، وتجعلك كما تجعلني أحس ببعد الغاية التي بدأنا البحث عنها، إذ تطالبنا بعد وصولنا إلى الحقيقة التي عشنا هذه اللحظات متشوقين إلى إدراكها بإيثارها عن غيرها عند معرفتها، وهو أمر أصعب من الأول. فكان كلامنا الركيك منذ أن بدأنا إلى الآن بالنسبة إلى هذه العبارة كضوء الشمعة وسط الرياح الهوجاء بالنسبة إلى ضوء الشمس وسط النهار، فأنا وأنت فرحنا بأن انطلقنا، فنادتنا هذه العبارة: اعلموا أن الوصول إلى الحقيقة ليس هو نقطة النهاية، وإنما بعدها نقطة أخرى أبعد وأهم، ولكن لا بأس أن نعتبرها هي النهاية حتى يكون لنا نَفَس يبقي معنوياتنا مرتفعة.

ومن هنا يتضح لك أن اختيارك لمبدأ من المبادئ بطريقة عشوائية ليس اختيارا مبنيا على قاعدة صحيحة، فلا أظن أنك ستثبت على شيء لست مقتنعا به.

قد تقول: فما العمل؟

فأقترح عليك فكرة ليس لتتبعها ولكن لتنظر فيها، وتبدي رأيك إن كنت **صخشا** مثلي. فمن عادتي أن أقترح عليك أشياء لستُ مؤمنا بها، لكني أحب أن أعرف رأيك بخصوص أفكاري اليتيمة الغريبة. ودون أن أطيل: ما رأيك لو يفهم الإنسان الفطرة التي جبلت عليها الخلائق، ويتبعها فهل سيكون إنسانا سويا، ويمكنه القول أنه توصل إلى الحقيقة التي دوخت أشخاصا كثيرين؟

يبدو هذا الطرح بريئا لأنه لا يخرج عن قوانين الكون حسب زعمه، ولكنه من الأقوال التي يتفوه بها الإنسان ولا يفهم معناها. اسمح لي أيها الصديق العزيز أن أستطرد في شرح هذه الفكرة – أقصد **عدم فهم الإنسان كلامه** – في

1– ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي، ص173.

سطور، ثم أعود إلى رأيي بشأن الفطرة. وبذلك أكون قد منحتك وقتا لتفكر في رأيي هذا، وأكون قد هيأت لك الإجابة الكافية إن شاء الله.

هل تفهم ما تقول؟

ينقسم الناس الذين لا يفهمون كلامهم إلى قسمين اثنين:

✹ القسم الأول: الذين يسمعون ناسا يقولون كلاما فيكررونه، وهم لا يفهمون إلا معنى سطحيا لذلك الكلام، في حين أن الذين قالوه يقصدون معنى آخر قد يكون مخالفا لما يظنه المستمع، وهؤلاء النقلة لما لا يفهمون قد يوصلوه إلى من هم أوعى منهم فينبهونهم إلى معنى كلامهم، وهذه سنة من سنن الله في تفاوت الناس في الفهم والفطنة والذكاء، ولذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم: «نَضَّرَ اللهُ أَمْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ وَ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» (رواه أحمد). وفي حالة نقل كلام فيه منفعة للناس يكون الناقل الذي لا يعي ما ينقل مصلحا وهو لا يشعر، لكن ليس في كل الأحوال ينقل كلاما خيِّرا، إذ قد يقع في نقل كلام أعداء أمته ومحاربي دينه وعقائده، فيكون وسيلةً لنقل أفكارهم، وقناةً لترويج دعواتهم، وهو غافل ساه نائم، نعوذ بالله من جهل ما نقول ومن قول ما نجهل. ولذلك حذر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" من التلفظ بألفاظ غير مفهومة المعنى، فراجعه في موضعه[1].

---

1 – ينظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، دط، مصر: دس، دار الحديث بالأزهر، ص181.

فهم خاطئ:

✹ والقسم الثاني: هم الذين أبدعوا كلاما ولكنهم لم يعرفوا معناه الـــدقيق، وهم صنفان: مجتهدون مخطئون وفلاسفة أغلبهم متكلمون في أسماء الله وصفاته وهم لا يعلمون لوازم كلامهم.

مثل الصنف الأول ما حكاه ابن جني عن قول أبي الحسن لأبـــي حـــاتم: «ما صنعت في كتاب المذكر والمؤنث؟ قال: قلت: قد صنعت فيه شيئا. قال: فما تقول في الفردوس؟ قال: ذكر. قال: فإن الله عز و جل يقول: ﴿الفِـرْدَوْسَ هُـمْ فِيهَا خَالِدُونَ [1]﴾ قال، قلت: ذهب إلى الجنة فأنث[2]. قال أبو حاتم: فقـــال لـــي التوزي: يا عاقل أما سمعت قول الناس: أسألك الفردوس الأعلى؟ فقلت: يا نائم، الأعلى هنا أفعل لا فعلى. قال أبو الفتح: لا وجه لذكره هنا، لأن الأعلى لا يكون

---

1 – الآية: ﴿الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون11)

2 – قوله: «ذهب إلى الجنة فأنث» باب مهم من اللغة، ذلك أن العرب تراعي اللفظ أحيانا، وتراعي المعنى أحيانا، ومن ذلك قول ثعلب للزَّجَّاج متحدثا عن سيبويه: « يقول في كتابه في غير نسخة: "حاشا" حرف يخفض ما بعده كما تخفض "حتى" وفيها معنى الاستثناء» فقال الزَّجَّاج: « فقلت له: هذا هكذا وهو صحيح، ذهب في التذكير إلى الحرف وفي التأنيث إلى الكلمة» فقال ثعلب: « والأجود أن يجعل الكلام على وجه واحد» فرد الزَّجَّاج: « قلت: كل جيد؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لله وَرَسُولِهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وقرىء ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ذهب إلى المعنى، ثم قال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ ذهب إلى اللفظ، وليس لقائل أن يقول: لو حمل الكلام على وجه واحد في الآيتين كان أجود لأن كلا جيد» السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص161، 162. وقال ابن جني في بيانه شرف المعنى عند العرب واهتمامهم به أكثر من اللفظ: « فقد رأيت بما أوردناه غلبة المعنى للفظ، وكون اللفظ خادما له مشيدا به... وأما غير هذه الطريق من الحمل على المعنى وترك اللفظ، كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وإضمار الفاعل لدلالة المعنى عليه وإضمار المصدر لدلالة الفعل عليه، وحذف الحروف والأجزاء التوام والجمل وغير ذلك، حملا عليه و تصورا له، وغير ذلك مما يطول ذكره، ويمل أيسره، فأمر مستقر ومذهب غير مستنكر» ابن جني، الخصائص، ج1، ص237. وهذا باب في غاية الأهمية، فاعرفه.

أبدا فعلى[1]» فالتوزي لو فهم قوله: « أما سمعت قول الناس: أسألك الفـردوس الأعلى؟» لما قاله، لأنه حجة عليه لا له. ومن هذا الباب ما ذكره ابن جني فـي روايته لرأي الجاحظ في شأن مسألة نحوية فقال: «وكذلك ما يحكى عن الجاحظ من أنه قال: قال النحويون إن أفعل الذي مؤنثه فعلى لا يجتمع فيه الألف واللام ومن، وإنما هو بمن أو بالألف واللام نحو قولـك: الأفـضل وأفـضل منـك، والأحسن وأحسن من جعفر، ثم قال: وقد قال الأعشى:

فَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَىً ** وَإِنَّـمَا العِـزَّةُ لِلْكَاثِـرِ

ورحم الله أبا عثمان! أما إنه لو علم أن "من" في هذا البيت ليـست التـي تصحب أفعل للمبالغة؛ نحو أحسن منك وأكرم منك، لضرب عن هذا القول إلـى غيره مما يعلو فيه قوله، ويعنو لسداده وصحته خصمه، وذلك أن "من" في بيت الأعشى، إنما هي كالتي في قولنا: أنت من الناس حر، وهذا الفرس من الخيـل كريم، فكأنه قال: لست من بينهم بالكثير الحصى، ولست فيهم بـالأكثر حـصى فاعرف ذلك[2]» وإن كانت المسألة تحتاج إلى نقاش، إلا أنهـا صـالحة لهـذا الموضع والله أعلم. ومن ذلك ما رواه المبرد أن زيادا سمع «رجلا يسب الزمان فقال: لو كان يدري ما الزمان لضربت عنقه، إن الزمان هو السلطان[3]».

الجاحظ وابن جني معنا:

ويدخل ضمن الصنف الأول بعض العلماء الذين يناقشون موضوعا مـن المواضيع بالمنهج الملائم لموضـوعهم، والمنـسجم مـع زمـانهم، فيقتـضي

1- ابن جني، الخصائص، ج3، ص308، 309.

2- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص185. وج3، ص234.

3 - المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص137.

موضوعهم الإشارة إلى ما له علاقة بما هم فيه، فيتجاوزون عصورهم ويدخلون في علوم غير معروفة عند أهل زمانهم وهم لا يشعرون، ومن ذلك:

1) إشارة أبي عثمان إلى ما يشبه الأحماض، قال: «... فقد دل ما ذكرنا على أن جوف النعامة ليس يذيب الصخر الأملس بالحرارة، ولكنه لا بد على كل حال من مقدار من الحرارة مع خاصيات أخر ليست بذات أسماء، ولا تعرف إلا بالوهم في الجملة[1]» وهذا الكلام يقتضي التفكير فيما يساعد المعدة على هضم الأغذية وخاصة الصلبة منها، فتوصل عمرو بن بحر– رحمه الله وإياي– إلى وجود مواد تعمل كيميائيا وإن لم يصرح حرفيا بهذا اللفظ لعدم معرفته لأسماء هذه المواد، وقال عنها أنها ليست بذات أسماء.

كلا أيها الجاحظ! إنها عندنا في القرن الواحد والعشرين ذات أسماء، ولكن للأسف يا أبا عثمان أن أسماءها غير عربية لأن أبناءكم الذين جاؤوا من بعدكم لم يواصلوا ما بدأتموه، ولم يحافظوا على ما بنيتموه، وشدت أبصارهم نحو الغرب مع أن الشمس تشرق من الشرق، والله الهادي إلى سواء السبيل.

2) ما أشار إليه ابن جني من استحداث آلة مصوتة، وتساؤله عن إذا ما كان صانعها متكلما في حالة إحداثها للأصوات وعن إمكانية تسمية تلك الأصوات كلاما فقال: «فإن قلتَ: أرأيت لو أن أحدنا عمل آلة مصوتة وحركها[*] واحتذى بأصواتها أصوات الحروف المقطعة المسموعة في كلامنا، أكنت تسميه متكلما وتسمى تلك الأصوات كلاما؟ فجوابه ألا تكون تلك الأصوات

---

1 – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تقديم فوزي عطوي، دط. بيروت: دس، الشركة اللبنانية للكتاب، المجلد2، ص123.

* – لاحظ بأن قوله "حركها" له مرجعية آلات الطرب المعروفة في القرن الرابع الهجري، مثل العود والدف وغيرهما، مع أن تلك الآلات لا تحدث كلاما و لذلك رأى أنه ليس بمقدور البشر إحداث آلات تصدر عنها أصوات مشابهة للحروف التي يتلفظ بها الإنسان.

كلاما، ولا ذلك المصوت لها متكلما، وذلك أنه ليس في قوة البشر أن يوردوه بالآلات التي يصنعونها على سمت الحروف المنطوق بها وصورتها في النفس لعجزهم عن ذلك، وإنما يأتون بأصوات فيها الشبه اليسير من حروفنا فلا يستحق لذلك أن تكون كلاما، ولا أن يكون الناطق بها متكلما كما أن الذي يصور الحيوان تجسيما أو ترقيما لا يسمى خالقا للحيوان، وإنما يقال مصور وحاك ومشبه[1]» ومع أن هذا الطرح فاق عصر ابن جني بعشرات القرون، فقد استطاع أن يثير المسألة، ويتساءل بشأنها، ثم يجيب عن أسئلتنا، ويعلل إجابته بما هو معروف في زمانه، ويوفق في كون محدث تلك الآلة ليس متكلما، لكنه لم يوفق في إخراجه لأصوات تلك الآلة من الكلام، لعدم قدرته- وهو في القرن الرابع الهجري- على تخيل ما تصل إليه الحضارة الإنسانية، ولكن يكفيه أن رحل بفكره عبر عشرات القرون، ومناقشته قضايا لم تكن تخطر على بال. وما يجب الانتباه إليه، هو أن هذا الموضوع الذي ناقشه ابن جني ليس هو المقصود بالذات، وإنما جره موضوع آخر كان مطروحا في عصره، فرأى أن يشير إلى موضوعات أخرى حتى يمكنه الإحاطة بموضوعه، ولذلك أدرجته ضمن من يقول كلاما وهو لا يفهم معناه، وهو في هذه الحالة ليس لجهله وإنما لخروجه من عصره والبحث في عصر بفكر عصر، فتأمل ذلك.

ومن تتبع البلاغة والبديع العربيين فإنه يجد فيهما قسطا كبيرا من الدراسات اللغوية والأدبية الحديثين، مع اختلاف في الشكل فرضه اختلاف الأعصر، فلكل قوم مصطلحاتهم، ولكل زمان نمط من الفكر، وشكل من الفلسفة، ونوع من الاستدلال. ولا تكن من إحدى الطائفتين، فتعتقد أنه لم يترك الأول للآخر شيئا، فتبحث عن كل علم حديث في التراث، وتحاول إيجاد صورة له مهما كان ذلك مستحيلا، أو تعتقد أن هذا العلم الحديث والغربي بالتحديد نزل

---

1 - ابن جني، الخصائص، ج2، ص454، 455.

صدفة من السماء، ولم يبن على أساس وضعته الحضارات السابقة، من بينها حضارة أجدادنا الذين لم يجدوا إلى حد الآن من يكشف عن عبقريتهم الفذة، ويبعث مبادئ علومهم التي أفنوا أعمارهم في بنائها. وإنما عليك أن تكون ممن يعرفون الحق ويثبتونه لأهله. ومن هذه الأمثلة يتضح لديك أن **الزمان حاجز منيع لمعرفة الأشياء على حقيقتها**، وما قيل عن الحديث عن أزمان قادمة، يقال كذلك عن التخمين والبحث عما كان في الأزمان البعيدة الغابرة، إلا أن الأول أصعب والله المستعان.

احذر الفعل يلزم...

ومثل الصنف الثاني: الذين يقولون كلاما لا يراعون ما يلزمهم من بعده، وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذه القضية في غير ما موضع من كتبه، منها ما قاله عن القرامطة في نفيهم عن الله سبحانه وتعالى بعض الصفات تنزيها له، فوقعوا في أكبر مما حذروا، وهذا نص كلامه:« وكذلك احتج القرامطة على نفي جميع الأمور حتى نفوا النفي فقالوا: لا يقال موجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي، لأن ذلك تشبيه بالموجود أو المعدوم، **فلزم** نفي النقيضين وهو أظهر الأشياء امتناعا، ثم إن هؤلاء **يلزمهم** من تشبيهه بالمعدومات، والممتنعات، والجمادات، أعظم مما فروا منه من التشبيه بالأحياء الكاملين» ولو نظرت من حولك في الحياة اليومية لرأيت من هذا الصنف شيئا كثيرا.

هموم الناس:

دعني الآن أستريح قليلا من التفكير الذي أرهقني دون أن أصل إلى شيء، لأنني لست من أهله، ولكنني هذه المرة سأتدخل فيما لا يعنيني وأبحث عن هموم الناس فأقول:

❖ **هموم الشباب:** هم الشاب العمل، والزواج، والبحث عن الاستقرار؛ ويظن المسكين أنه إذا حقق هذه الأماني، وتجاوز هذه المرحلة من عمره لن يعرف بعدها مشكلا، ولن يلاحقه تعب ولا نصب، ولم يعلم أنه في حقل مزين بأزهار العمر جميعها، وإن كان يراها سوداء ذات أشواك. فإذا ابتعد عنها، ومد الحرمان يده إليه ليمنعه منها، رآها لآلئ من المرجان تنير الكون، لكن غشاوة من أوهام الهموم كانت على عينيه، وإن لم تكن في الأصل من الهموم، والله المستعان.

❖ **هموم الشيوخ:** مبدأ هم الشيخ من شعوره باقتراب الأجل، وإحساسه بضعف جسده، من قصر البصر، وضعف السمع، وتغير نكهة الأكل، واضطراب وقت النوم، فيعلم أن الوقت قد حان، فيبدأ في تذكر الإخوان: فلان حج وأنهى أركان دينه، وفلان على فراش الموت، وفلان مات رحمه الله. غير أنه لا ينزع يده من الدنيا إلى أن تفارق روحه جسده، ولذلك تجده يعد أيام الشهر ليسحب منحة التقاعد التي تعيد إليه نسمة من نسيم الحياة، كما يفكر في مستقبل أبنائه حتى لا يبقي واجبا من بعده يحاسب عليه بنوع من المحاسبة...

❖ **هموم الرجال:** هم الرجل البحث عن لقمة العيش والمجيء بها حية أو ميتة، فعليه التفكير في ملبس أبنائه ومأكلهم ولوازم تعليمهم، وهو من أجل ذلك يسهر الليالي، ويقطع المسافات، وينافس الرجال. ويا لها من مهمة!

❖ **هموم النساء:** هم المرأة المتزوجة خاصة، السيطرة على بعلها، والتأكد من أنه لا يمد عينه إلى غيرها، وفي سبيل ذلك:

تَدُسُّ إِلَى العَرَّافِ سِلْعَةَ بَيْتِهَا ** وَهَلْ يُصْلِحُ العَرَّافُ مَا أَفْسَدَ الجَهْلُ؟

وهذا البيت من بحر فات الخليل ولم يستدركه عنه الأخفش، ذكره أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل في اللغة والأدب. ومن ثم

على كل رجل متزوج أن يقدم لزوجته تصريحا شرفيا يؤكد لها فيه إخلاصه التام غير المرتبط بشروط، فإن كنت أيها الرجل لا تعرف كتابة هذا التصريح فإليك النسخة التالية:

أنا المسكين محدودب الظهر، شائب الشعر، رقيق العظم، قليل الجهد، المنصرف إلى عملي صباحا، العائد إلى منزلي مساء، السالك الطريق الأقرب المؤدي إلى العمل والمعيد إلى البيت، المنشغل بلقمة العيش، المتتبع لهمومي، المفكر في تلبية حاجيات أسرتي، الممضي أسفله: أصرح بشرفي أني لن أتزوج مرة ثانية، ولو علمت الزواج كلفة عظيمة، وخبطة خطيرة، ومحنة ثقيلة، وبلاء مستطيرا، ما أقدمت على الدخول في متاهاته، ولا أخذت نفسي على الخوض في منزلقاته، هذه حالي مع واحدة، فكيف حالي مع اثنتين، والسلام.

وامض أسفل التصريح، وصادق عليه في دار البلدية، ثم قدمه إلى زوجتك علها تستريح من الزيارات المتكررة للعراف الذي يفسد ولا يصلح.

ومن هموم المرأة كذلك، تتبع أخبار جاراتها والتجسس على كل جديد، حتى يكون لها مع كل أمر عارض موقف يتلاءم معه، ومع كل شيء حادث حديث. وحتى لا تغضب مني النساء المخلصات لأزواجهن، الواقفات عند واجباتهن، السالكات طريق أمهاتهن: خديجة وعائشة وحفصة وغيرهن من أمهات المؤمنين وبنات الصالحين رضي الله عنهن أجمعين؛ أقول: ومن هموم المرأة الصالحة، العمل على إسعاد زوجها ومساعدته على بناء البيت المسلم الصالح، ومنعه من الخروج عن الطريق السوي، والله المستعان.

وإنما بدأت بالصنف الأول لدفع الملل عن القارئ لما فيه من الطرافة، والخفة. لأنه من الهزل أقرب، وبالنكتة أشبه، وللتحذير من أن تتبع المرأة ذلك

الطريق الذي لا يزيد حياتها وحياة أسرتها إلا هما على هم والله الهادي إلى سواء السبيل.

❖ **هموم الفقراء:** هم الفقير الحصول على الضروري من المعيشة، وضمان المسكن المستقر لأبنائه وأفراد أسرته، والعمل على أن لا يمد يده لأحد، فإن تحقق له ذلك، طمح إلى جمع المال، وفكر في لو أنه يصبح غنيا، فإن قنع بما هو عليه، ولم ييأس من إمكانية تغيير حاله عاش قانعا طامحا عزيزا، وإن لم يقنع وفكر في الوسيلة التي تخرجه من فقره بأي حال، أصبح من أذل مخلوقات الله، لأنه لا بد له مع هذه الصفة أن يتملق الناس، وأن يخضع للعباد طمعا بما في أيديهم، ولن يعطوه شيئا لم يكتبه الله له، كما أنهم لن يمنعوه رزقا كتبه الله له. وملخص القول أن هم الفقير هو البحث عن المال لتلبية حاجيات يومه، ولدفع مذلة السؤال غير أن هذين المطلبين ينجبان أربعة مطالب عند تحقيقهما، وكل من ابنيهما ينجب ابنين عند تحقيقه، إلى أن يزور القبر.

❖ **هموم الأغنياء:** وهم الغني هو ابن من أبناء هموم الفقير، لكن ليس معنى هذا أنه أصغر منها، ولكنه – وإن كان ابنا – أضعاف أضعاف هموم الفقير، لأن الغني يعمل حتى لا يصبح فقيرا بعدما ذاق طعم النعمة، كما أن مطالبه أكثر من مطالب الفقير، فيصبح يمد عينه إلى من هو أكثر منه مالا وولدا، و قد يطلب السلطة وهكذا لا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب.

وليس بالضرورة أن يكون الهم أصغر من أبيه، لأن هذه القاعدة أي الأب أكبر من ابنه خاصة بالحسيات، أما المعنويات فقد تصدق وقد لا تصدق، لأن المعنويات خاضعة للعقل وقد يحملها من الحقيقة إلى المجاز، وبذلك يضع جنس ابن جنس آخر فتصعب المقارنة بينهما لاختلافهما في الجنس، ومثل ذلك – كي تفهم عني ما أقول وتخرج هذا الكلام من الهلوسة – لو طلب منك المقارنة بين

علم الابن وعلم الأب أيهما أوسع، فإنك – ولا بد– لا تحكم على علم الابن بالقلة لصغره، ولا بسعة علم الأب لكبره، ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله يرزق من يشاء بغير حساب.

بعر كبش الجاحظ وأثره على الدرس اللغوي:

ثم أعود بعد هذه الجولة التي كان لابد منها، لأنها من باب الهجوم خير وسيلة للدفاع، فكان لزاما علي أن ألج هذا الباب حتى لا أهاجم في عقر داري وأنا وإياك منشغلان بالبحث، والحمد لله الذي وفقنا للعودة سالمين.

ولمواصلة الإجابة عن إمكانية اتخاذ الفطرة وسيلة للوصول إلى الحقيقة، أقول:

يبدو السؤال وكأنه يحاول محاكاة الكائنات غير العاقلة لأنها تسير وفق فطرة فطرت عليها، ولذلك فهي بريئة كل البراءة، وكل ما تقوم به خال من المكر والخداع، والبغض والحسد، ومن كل النقائص التي يتصف بها الإنسان، ثم إن كثيرا من المخترعات البشرية تشبه ما وجد في الطبيعة أولا، سواء استوحاه منها أم اخترعه فوجد مثله في الطبيعة منذ آلاف القرون، فكانت:

بالسبق حائزة تفضيلا

وعلى هذا الأساس، يحاول صاحب هذا السؤال، إلغاء كل ما توصل إليه الإنسان بعقله، ويخرج متفكرا في مشية القط، وحرس الكلب، ونهم الأسد، ورشاقة القرد، وكرم الديك، ونباهة الحمار، ومزايا خلق الغنم، وحسن جوار الماعز، ورزانة الجمل، ونظافة الذباب، وتأدب الخنزير، إلى ما هنالك من الصفات الحميدة، والأخلاق السمحة الموجودة في الطبيعة التي تسير وفق الفطرة الطبيعية، فيأمن الخطأ. وإن وقع فيه، فلا لوم عليه، لأنه اختار المنهج الذي لا يحكمه قانون بشري، ولا عقل إنساني. وحتى في الجانب اللغوي يحسن

الإنسان اللغة التي اكتسبها من غير أن يتفلسف حول قوانينها أحسن من اللغة التي أتعب نفسه في دراسة قواعدها، وهذا جانب من الفطرة.

بل أقول: إن الجاحظ في أغلب تنظيراته لعلوم اللسان سواء في كتاب الحيوان أو في كتابه الكبير البيان والتبيين، لم يزد على أن جمع جملة من أشعار الأعراب، وأقوالهم الناتجة من سجيتهم واستنطقها وجعل منها نظريات لسانية، ولست أقصد من هذا الكلام أنه استشهد بأقوالهم فحسب، ولكني أقول: استفاد من أقوالهم، وإني أعلم أن هذا القول واضح لمن قرأ الكتابين (البيان والتبيين والحيوان) ولكني سأفصل القول في هذا الموضوع لأنه بحث بحد ذاته، مع أن الموضع ليس مناسبا لكن ما دام الكلام في الموضوع مسليا، فلا بأس أن نتبعه ونعيش لحظات مع الجاحظ – رحمه الله وإياي – ونفهم كيف جعل من الشعر قواعد، استنبط منه كثيرا من النظريات التي تضارع ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة!

بدأ الجاحظ كتابه البيان والتبيين بتوضيح ما للبيان من أهمية، فجاء بآيات من القرآن الكريم ثم أتبعها أبيات شعرية، ولما وصل إلى قول الشاعر في نظر الأعداء بعضهم إلى بعض:

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوا فِي مَوْقِفٍ ** نَظَراً يُزِيلُ مَوَطِئَ الأَقْدَامِ

استنتج أن اللغة تواصل بين طرفين (المُفهِم) وهو ما يسمى في اللسانيات (المُرسِل) و (المُتَفَهِّم) وهو ما يسمى في اللسانيات (المرسَل إليه)، ولكنه نظر إليهما من ناحية قدرة الأول على الإفهام، وقدرة الثاني على الفهم فقال: «لأن مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمُفْهِمُ لك والمُتَفَهِّمُ عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفْهِم **أفضل** من المُتَفَهِّم، وكذلك المعلم والمتعلم. هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا في الخاص الذي

لا يذكر والقليل الذي لا يشهر[1]» هذا الكلام استنبطه الجاحظ من قول الشاعر لأن مفاد قوله أن الأعداء يتفاهمون من غير كلام، ثم أجهد الجاحظ فكره فاستخرج فكرة رائعة في الدرس اللغوي، وإن بدت الفكرة للجاحظ إلا أنها ليست له، فإن قلتَ: بل هي للجاحظ. أقول لك: فما تقول في دراسة الجاحظ لعيوب الكلام التي تعنى بها اللسانيات التطبيقية، أأبدعها من عند نفسه أم أخذها من شعر العرب؟ وما رأيك في قول الشاعر الذي ذكره الجاحظ:

كأن فيه لفقا إذا نطق ** من طول تحبيس وهم وأرق

ثم قال شارحا له: «كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك أصابه لفف في لسانه[2]» أترى الجاحظ توصل إلى هذه المعلومة بما قرأه من كتب الفلسفة اليونانية، أو من فكر المعتزلة المفكرين، أم أنه رجع إلى المتكلم في بيئته الطبيعية وافتك المعلومات من أقوالهم البريئة القريبة من الفطرة لبعدها عن التأثير الحضاري، ولا يمر الجاحظ على هذا البيت الشعري ويجعله البيت الوحيد الذي يستفيد منه، بل إن مذهبه هو تتبع أقوال العرب في أشعارها وخطبها عن كلامها من غير أن يكون لها علم تتبع قواعده، و لذلك قال: « قال: وأنشدني الأصمعي:

حَدِيثُ بَنِي قُرْطٍ إِذَا مَا لَقِيتَهُم ** كَنَزْوِ الدِّبَا فِي العَرْفَجِ المُتَقَارِبِ

قال ذلك حين كان في كلامهم عجلة. وقال سلمة بن عياش:

كأن بني رألان إذ جاء جمعهم ** فراريج يلقى بينهن سويق

فقال ذلك لقلة أصواتهم وعجلة كلامهم... ويقال: في لسانه حبسة إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام، ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص11، 12.

2 – نفسه، ج1، ص38.

الكلام. ويقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول...[1]» ويواصل مع مصطلحات أمراض الكلام التي تستعملها العرب في كلامها وأشعارها، وتحدث عن الحكلة والنحنحة والسعلة عند إلقاء الخطبة. ثم يذكر تفسير يونس بن حبيب قول الأحنف بن قيس:

أنا ابن الزافرية أرضعتني ** بثدي لا أجد ولا وخيم

أتمتني فلم تنقص عظامي ** ولا صوتي إذا جد الخصوم

«قال: إنما عنى بقوله: عظامي أسنانه التي في فمه، وهي التي إذا تمت تمت الحروف، وإذا نقصت نقصت الحروف. قال يونس: وكيف يقول مثله: "أتمتني فلم تنقص عظامي" وهو يريد بالعظام عظام اليدين والرجلين، وهو أحنف من رجليه جميعا مع قول الحتات له: "والله إنك لضئيل، وإن أمك لورهاء". وكان أعرف بمواقع العيوب وأبصر بدقيقها وجليلها. وكيف يقول ذلك، وهو نصب عيون الأعداء والشعراء والأكفاء، وهو أنف مضر الذي تعطس عنه، وأبين العرب والعجم قاطبة[2]» وينتقل الجاحظ من الدراسة الصوتية بعد تطرقه لأصوات بعض الحيوانات إلى نقد الشعر وأهمية انسجام الكلام، لكنه يبقى وفيا لما احتواه الشعر العربي من ملاحظات ناتجة عن الفطرة السليمة، أي ما نطق به الشاعر من خلال ملاحظاته من غير علم مسبق ولا فلسفة ذات قوانين محكمة، فأنشد بيتين من الشعر أذكر منهما قول الشاعر:

وشعر **كبعر الكبش** فرق بينه ** لسان دعي في القريض دخيل

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص39، 40.

2 – نفسه، ج1، ص59، 60.

ثم قال: «وأما قوله: **كبعر الكبش** فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة متواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد[1]» ويتطرق الجاحظ إلى ما يعرف في اللسانيات الحديثة بـ "اللغة الأم"[2] ويبين أنها إن رسخت في ذهن الناطق بها لا يمكن له أن يتخلص من طريقة نطق حروفها ونظم كلماتها، وما يحدث لدى الفرد من تداخل لغوي في النظام خاصة، وهذه المعلومات استنبطها الجاحظ من ملاحظاته الخاصة، غير أنه انطلق من أقوال شعراء أذكر منها ما أنشده ابن الأعرابي:

وَبَاتَ يَدْرُسُ شِعْراً لاَ قِرَانَ لَهُ ** قَدْ كَانَ نَقَّحَهُ حَوْلاً فَمَا زَادَا

وقول الآخر، بشار:

فَهَذَا بَدِيهٌ لاَ كَتَحْبِيرِ قَائِلٍ ** إِذاَ مَا أَرَادَ القَوْلَ زَوَّرَهُ شَهْراَ

ثم تتبع أقوال كثير من الأعاجم الذين تكلموا العربية فأخطأوا، ومن ذلك قول النبطي الذي قيل له: لم ابتعت هذه الأتان؟ قال: أركبها و تَلَدُ لي. فجاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها، ولا زاد فيها ولا نقص، ولكنه فتح المكسور حين قال: و تَلَدُ لي، ولم يقل: تَلِدُ لي[3]. وبذلك توصل الجاحظ إلى غلبة اللغة الأم على بقية اللغات من الناحيتين الصوتية والتركيبية، وفي الوقت

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص67.

2 – ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص68– 74.

3 – نفسه، ج1، ص74.

نفسه، أشار إلى التداخل اللغوي، وإن لم يسمه بهذا اللفظ فقد حام حـــول حمـــاه، ومنطلقه من الأبيات الشعرية التي بدأ كلامه بها عن هذا الباب، فتأمل.

ومن النتائج التي توصل إليها الجاحظ رحمه الله، والتي يعرفها مـــن لـــه أدنى اهتمام بما كتبه هذا الأديب الفذ، ودونه هذا اللغوي البارع، وأنتجـــه هـــذا الروائي المسرحي المرح، أن أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثـــم الحال التي تسمى نصبة[1]، ثم يذكر مراجعه التي أخذ منها نتائجه التي توصـــل إليها، فقال عن اللفظ: وقالوا البيان بصر والعي عمى، كمـــا أن العلـــم بـــصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل[2]، وذكـــر أقـــوالا أخرى نتركها استغناء بذكر واحد منها، ثم عاد إلى الإشارة، فذكر عـــدة أبيـــات شعرية كذلك، أذكر منها قول الشاعر في دلالات الإشارة:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ** إِشَـــارَةَ مَذْعُـــورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّـــمِ
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَباً ** وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيـــــبِ المُتَيَّمِ[3]

ثم أخذ أدلة دلالة الخط وشرفه من القرآن الكريم، ولعله لم يجد أدلة مـــن الشعر لأن قدماء الشعراء لم يكونوا من الكتاب، بل إنهم كـــانوا يـــستحون مـــن كونهم يكتبون، لأن الكتابة قدح في عربيتهم الأصيلة، فإن صح هذا الافتـــراض؛ فإن هذا من معجزات النبي صلى الله عليه و سلم إذ كانت أول آية آمرة بالقراءة، ولم ينبه إليها الشعراء من قبل، وكذلك يقال بالنسبة للحساب، ثم يجـــد للنـــصبة شواهد من أقوال الأوائل فقال: فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

2 – نفسه، ج1، ص77.

3 – نفسه، ج1، ص78.

من جهة البرهان، ولذلك قال الأول: "سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا[1]" هكذا تتبع الجاحظ أقوال العرب وجمع معاني علمية ونسقها، وهي الآن ضمن العلوم الحديثة، ثم لما أسس لعلم البلاغة وذكر طرفا صالحا من الأقوال التي تتدرج تحت هذا العلم أراد أن يعرف معنى البلاغة، فنقل عن ابن الأعرابي قوله: قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل[2] وقال في موضع آخر: وصف أعرابي أعرابيا بالإيجاز والإصابة فقال: كان – والله – يضع الهناء مواضع النقب[3] فهذا أعرابي يعرف البلاغة من غير أن يدرس كتب اللغة، وهذا الجاحظ المطلع على كتب الفلسفة اليونانية المتشبع بالفكر الفلسفي الذي أخذه عن شيخه النظام، يدرج قول الأعرابي ويحاول من خلاله ومن خلال أقوال غيره أن يعرف البلاغة تعريفا دقيقا، مع أن هذا العلم لم يكن في عصره واضح المعالم. ويتطرق الجاحظ إلى مسألة مصطلحات العلوم فيقول:... وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد، وقصار الأرجاز، ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل، والبسيط، والمديد، والوافر، والكامل، وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد، والأسباب، والخرم، والزحاف، وقد ذكرت العرب في أشعارها السناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع بالإيطاء[*]، وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب،

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص81.

2 – نفسه، ج1، ص97.

3 – نفسه، ج1، ص107.

* – هذا سهو من الجاحظ، لأنه هو نفسه ذكر بيتا شعريا ذكر فيه مصطلح الإيطاء في قول البَرْدُخْت:

فعينك إقواء وأنفك مكفأ ** ووجهك إيطاء فأنت مرقع

نفسه، ج2، ص215.

وذكروا حروف الروي والقوافي، وقالوا: هذا بيت وهذا مصراع[1] ثم ذكر لبعضها شواهد من الشعر العربي، وبذلك يتبين أن بعض مصطلحات علم العروض كانت موجودة عند العرب، فذكروها في أشعارهم ثم أضاف الخليل بن أحمد مصطلحات أخرى، وضبط هذا العلم ضبطا رياضيا، وهذا ما يفهم من قول الجاحظ، وإن ذهب أحمد بن فارس إلى أن علم العروض كان موجودا ثم نسي وأحياه الخليل، إلا أن قوله هذا فيه ضعف لعدم توفر الأدلة المثبتة له، وإنما قال ذلك حتى يبقى وفيا لمذهب التوقيف لكل العلوم. ثم يدرس الجاحظ النظم، وينطلق دائما من أقوال الشعراء فقال: ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب، وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي وأشباه ذلك. وأنشدني أبو الجماهير جندب بن مدرك الهلالي:

لاَ يُشْتَرَى الحَمْدُ أُمْنِيَــةً ** ولا يُشْتَرَى الحَمْدُ بِالمِقْصَرِ
ولَكِنَّمَا يُشْتَرَى غالـــيا ** فَمَنْ يُعْـطِ قِيـمَتَه يَشْتَـرِ
وَمَنْ يَعْتَطِفْهُ عَلَــى مِئْزَرٍ ** فَنِعْمَ الرِّدَاءُ عَــلَى المِئْــزَرِ[2]

وذكر غير هذه الأبيات أكتفي بالإشارة إلى شاهد واحد، ثم يواصل ليبين إصابة المعنى بالكلام الموجز، وهو بذلك يناقش موافقة اللفظ للمعنى المراد التعبير عنه، فذكر كثيرا من الأبيات الشعرية أذكر منها قول ابن أحمر:

تضع الحديث على مواضعه ** وكلامـــــها من بعده نزر[3]

---

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص139.

2 – نفسه، ج1، ص222.

3 – نفسه، ج1، ص276.

وهذا البيت الشعري يمس جانبا كبيرا من موضوع كتاب البيان والتبيين إن لم يكن موضوعه الذي ألف من أجله، فتأمله. وذكر في موضع آخر بيتا في هذا المعنى فقال: وقال الآخر:

وإن كلام المرء في غير كنهه ** لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها[*]

ثم لاحظ قول الكسائي الذي ذكره الجاحظ في قوله: قال الكسائي: لقيت أعرابيا فجعلت أسأله عن الحرف بعد الحرف[**]، والشيء بعد الشيء أقرنه بغيره، فقال: تالله ما رأيت رجلا أقدر على كلمة إلى جنب كلمة أشبه شيء بها وأبعد شيء منها منك[1]. ألا ترى أن الأعرابي ذهب إلى أبواب النحو في المشابهة، وإلى معاني الكلمات في الاختلاف؟ إذ اكتشف بحسه أن الكلمات التي سئل عنها تندرج ضمن باب واحد، مع أن معانيها ليست خاصة بميدان واحد وهذا من العجب العجاب.

وحتى لا تسأم من اعتماد الجاحظ أقوال الشعراء والأعراب في استنتاج بعض الملاحظات اللغوية، وتظن أنه تعسف مني في جمع ما أمكن من البيان والتبيين، أترك هذا الكتاب وأختم بقول الجاحظ متحدثا عن إلمام الشعراء بكل ما يمس حياتهم: «وكان أحدهم لا يدع عظما منبوذا باليا، ولا حجرا مطروحا، ولا خنفساء، ولا جعلا، ولا دودة، ولا حية إلا قال فيها[2]»، ولذلك سمي الشعر ديوان العرب. ولننتقل الآن إلى العلامة ابن جني رحمه الله، ولننظر كيف اعتمد

---

* – ورواه في موضع آخر: وإن مقال المرء... ج3، ص203.

**– مصطلح الحرف يطلق على الكلمة عند نحاة الكوفة.

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص297.

2 – الجاحظ، الحيوان، ج2، ص487.

أقوال الشعراء، وكلام أهل المدر، في تأسيس بعض نتائجه النحوية واللسانية في كتابه الخصائص.

المال:

وقبل تتبع ما استنتجه العلامة ابن جني من أقوال العرب، لا بأس أن أجيبك عن سؤالك الذي رأيته في ملامح وجهك والذي تقول فيه: آلمال موصل إلى الحقيقة؟

وأجيبك على الفور أني لم أفهم سؤالك، ومن عادتي أن أفهم الأسئلة، وإن كنت لا أعرف الإجابة عن جميعها، وقد يعود الغموض في هذا السؤال إلى علمي بأن الحقيقة لا تباع، كما تباع المناصب، والأوطان، والحريات، والأعراض وغيرها من السلع التي أصبحت تباع مع غلاء ثمنها، وكنت أظن أن الحقيقة لم تدخل السوق بعد، ولو علمت أنها تباع لما أتعبت نفسي ولما أتعبتك معي في البحث عن شيء مبتذل في الأسواق!

غير أنه يمكن فهم سؤالك، على أنه يبحث عن تمويل رحلة البحث عن الحقيقة، وهذا معلوم بالضرورة لا يحتاج إلى كلام، فكل عمل محتاج إلى تكاليف، وإنما أحاول أن أجيب عن عكس هذا السؤال، وهو دور المال في حجب ضوء الحقيقة، وذلك أن الإنسان يعيش في هذه الحياة، وهو أمام خيارات كثيرة تتمثل أساسا في نوع المأكل، وشكل الملبس، وصنف الأصدقاء، ومكان السكن، وغيرها من الأمور التي لا تكون الحياة إلا بها، وفي هذا المجال له أن يختار ضربا من الحياة، ولكن ليس له أن يختارها كلها، لأن هذه العناصر لا تجتمع لفرد واحد في وقت واحد، فلا يمكن لأي كان أن يلبس اللباس التقليدي وفي الوقت نفسه يستعمل اللباس المعاصر، وإن أمكنه ذلك – وهو ممتنع عرفا– وأقدم عليه فإن ذلك يصبح نقصا وتذبذبا في **صخشيته**. ومن الممكن جدا أن

يرغب في نوع من الحياة لكن مخزونه المالي لا يسمح له بتحقيق رغباته، وقلَّ من وجد كل ما تمناه، وأحسن وسيلة تساعد على تحقيق الأماني – على الأقل حسب اعتقاد عامة الناس – هو المال؛ إذن على من أراد التخلص من عائق الاختيار، أن يعمل جاهدا لتحصيل المال، ثم يستبدله بما شاء وفي الوقت الذي يشاء، ومع الشخص الذي يشاء، فالمال هو السحر الأقوى في العالم لدى السواد الأعظم من إنس هذا الزمان وإنس أزمنة خلت. هذه الفكرة تبدو صحيحة لأول وهلة غير أنها هي السبب في انهيار صرح الأخلاق والمروءة؛ وسر هذه المسألة هو أن المشكل لا يعود فقط إلى فيم نستعمل المال؟ ولكن يعود بدرجة أولى إلى من أين نحصل عليه؟ ومعنى هذا أن الإنسان ليس مقيدا فقط بالخيارات المادية، ولكنه مقيد قبل ذلك بالخيارات الأخلاقية. إذن فالأولى أن يقبل الإنسان مهنة ويرفض الأخرى مع أن كليهما مصدر للحصول على المال. ومن قبل المال من أي وجه أمكنه الحصول عليه منه، فهذا لم ينظر إلا إلى الخيارات المادية من ملبس ومأكل ومشرب. ونسي أو تناسى الجانب الإنساني من شرف، وأخلاق، وكرامة وغيرها من الخصال التي أصغرها لا تعوضه كل الجوانب المادية التي يحققها المال. ولعلك لاحظت معي أن المال يُشتْرى مقابل الجانب الأخلاقي ويَشْتَرِي بعد الحصول عليه الجانب المادي الذي له دوره في الحياة. فإذا تعارض الجانبان فأيهما أولى بالاختيار؟

وهنا عليك أن تذكر قول ابن القيم "إيثاره عليه" فتأمل.

وقفة مع ابن جني:

ثم أعود إلى كتاب الخصائص، وكيف تتبع صاحبه أقوال الشعراء والأعراب، ليتوصل إلى مفاهيم هامة جدا في علم اللسان الحديث. وأبدأ بقول محقق الخصائص محمد علي النجار: «وكان ابن جني يحسن الثناء على المتنبي

في كتبه، ويستشهد بشعره في المعاني والأغراض[1]» وقوله هذا مستنتج من كتاب الخصائص، أعرضت عن إدراجه ضمن الحجج التي تبين أن ابن جني استنتج بعض القواعد من أقوال الشعراء لعدم وضوحه، ولوجود أدلة أوضح منه، من ذلك قوله: «وسألت يوما أبا عبد الله محمد بن العساف العقيلي الجوثي، التميمي – تميم جوثة – فقلت له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال: أقول: ضربت أخاك. فأدرته على الرفع، فأبى، وقال: لا أقول أخوك أبدا. قلت: كيف تقول: ضربني أخوك؟ فرفع. فقلت: ألست تزعم أنك لا تقول: أخوك أبدا؟ فقال: أيش هذا! اختلفت جهتا الكلام. فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام، وإعطائهم إياه في كل موضع حقه، وحصته من الإعراب، عن ميزة وعلى بصيرة، وأنه ليس استرسالا ولا ترجيما[2]» فواضح أن العرب كانت تعرف أن حركة الإعراب تختلف باختلاف تغير جهة الكلام، وابن جني لم يستنتج هذا من كلام العرب ولكنه أكد به حجج النحاة، وقال أثناء حديثه عن الاستخفاف الذي يعتبر من موضوعات اللسانيات الحديثة[*]: «وسألت غلاما من آل المهيا فصيحا عن لفظة من كلامه لا يحضرني الآن ذكرها، فقلت: كذا، أم كذا؟ فقال: كذا بالنصب، لأنه أخف. فجنح إلى الخفة، وعجبت من هذا مع ذكره النصب بهذا اللفظ. وأظنه استعمل هذه اللفظة لأنها مذكورة عندهم في الإنشاد الذي يقال له النصب مما يتغنى به الركبان[3]» و يروي قولا لسيبويه في تشبيه الحسن الوجه بالضارب الرجل، ويستنتج منه تمكن الفروع على الأصول حتى تأخذ منها

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص22 من مقدمة المحقق.

2 – نفسه، ج1، ص76.

* – يعرف في اللسانيات بالاقتصاد اللغوي.

3 – نفسه، ج1، ص78.

بعض أحكامها، ثم يقول:« فإن قلت: إن هذا ليس مرفوعا إلى العرب ولا محكيا عنها أنها رأته مذهبا، وإنما هو شيء رآه سيبويه واعتقده قولا، ولسنا نقلد سيبويه ولا غيره في هذه العلة ولا غيرها، فإن الجواب عن هذا حاضر عتيد، والخطب فيه أيسر، وسنذكره في باب يلي هذا إن شاء الله[1]» ثم أجاب عن هذا السؤال دون أن ينبه إلى أنه يجيب في [باب من غلبة الفروع على الأصول] فقال: «هذا باب من فصول العربية طريف، تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الإعراب. ولا تكاد تجد شيئا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة، فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرمة:

وَرَمْلٍ كَأَوْرَاكِ العَذَارَى قَطَعْتُهُ ** إِذَا أَلْبَسَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحُنَادِسُ

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وذلك أن **العادة** و**العرف** في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء[2]» وذكر بعدها عدة شواهد أستغني عن البقية بهذا الشاهد، ولك أن تعود إلى الكتاب، فإن هدفي التنبيه لا الإحاطة بكل ما ورد في الخصائص، وبعد أن ذكر الشواهد الشعرية التي قدم في معناها الفرع على الأصل قال: «وهذا المعنى عينه قد استعمله النحويون في صناعتهم، فشبهوا الأصل بالفرع في المعنى الذي أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل[3]» وهذا القول يؤدي إلى أن النحاة استفادوا منهجهم من الفكر العربي، أو أنهم أقاموا علما فوجدوه يتطابق مع الفكر العربي، والأول أرجح وذلك ما يقتضيه قول ابن جني، ولذلك قدم معاني الشعر عن معاني الإعراب، ليبين أن ما ذهب إليه النحاة وإن لم يكن مرفوعا إلى العرب، فإنه مروي عنهم

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص298.

2 – نفسه، ج1، ص300.

3 – نفسه، ج1، ص303.

ما يشبهه في شعرهم فتنبه. والدليل على أنه انتصر لهذا الرأي قوله: «فلما رأى سيبويه العرب إذا شبهت شيئا بشيء فحملته على حكمه، عادت أيضا فحملت الآخر على حكم صاحبه تثبيتا لهما وتتميما لمعنى الشبه بينهما، حكم أيضا لجر الوجه من قوله: هذا الحسن الوجه أن يكون محمولا على جر الرجل في قولهم: هذا الضارب الرجل كما أجازوا أيضا النصب في قولهم: هذا الحسن الوجه حملا له منهم على هذا الضارب الرجل... ولما كان النحويون بالعرب لاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم متحلين، ولمعانيهم وقصودهم آمين، جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وزم شوارده، وأفاء فوارده، أن يرى فيه نحوا مما رأوا ويحذوه على أمثلتهم التي حذوا، وأن يعتقد في هذا الموضع نحوا مما اعتقدوا في أمثاله، لا سيما والقياس إليه مصغ، وله قابل، وعنه غير متثاقل، فأعرف إذاً ما نحن عليه للعرب مذهبا، ولمن شرح لغاتها مضطربا، وأن سيبويه لاحق بهم وغير بعيد فيه عنهم، ولذلك عندنا لم يتعقب هذا الموضع عليه أحد من أصحابه، ولا غيرهم ولا أضافوه إلى ما نعوه عليه، وإن كان – بحمد الله – ساقطا عنه وحري بالاعتذار هم منه[1]» وهو بهذا القول، يجعل سيبويه مستفيدا من منهج العرب، ويجعل موافقة بقية النحاة على ما جاء به سيبويه راجع إلى علمهم بأنه استقاه من الفكر العربي! ويثبت للأعراب القياس فقال: «وحكى الكسائي أنه سأل بعض العرب عن أحد مطايب الجزور، فقال: مطيب وضحك الأعرابي من نفسه كيف تكلف لهم ذلك من كلامه! فهذا ضرب من القياس ركبه الأعرابي حتى دعاه إلى الضحك من نفسه في تعاطيه إياه[2]» وروى في الباب

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص308، 309.

2– نفسه، ج1، ص369.

نفسه عن الأصمعي أنه «حكى عن أبي عمرو أنه سمع رجلا من أهل اليمن يقول: فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها! فقلت له: أتقول: جاءته كتابي! فقال: نعم، أليس بصحيفة! قلت: فما اللغوب؟ قال: الأحمق. وهذا في النثر كما ترى وقد علله[1]» فانظر في هذا الشاهد لتعلم أن مبادئ علم العربية موجودة في أذهان العرب، وعنهم أخذ العلماء العربية ومبادئ علومها، لذلك أبدعوا أيما إبداع لاتباعهم الفطرة السليمة. ولعلك ترى في هذه الشواهد تكلفا ذلك أن ابن جني لم يفد منها شيئا، أو أنه لم يقارن في كلها بين منهج العلماء ومنهج العرب. فأقول – وأنا دائما أعتز بكلامي سواء أكان صحيحا أم غير صحيح، فدرهم ملكي خير من ألف ملك غيري –: ما تقول في احتجاجه لـ "باب في الدور، و الوقوف منه على أول رتبة" بقول الشاعر:

رأى الأمر يفضي إلى آخر ** فصير آخره أولا؟

غير أن العرب كانت تعرف الأشياء ولا تسميها ولا تقننها، وذلك راجع إلى قلة العلوم عندها، وافتقارها إلى المناهج الفكرية، وإنما فهمت العلل ولم تحسن التعبير عنها، فقيض الله جيشا من العلماء من العرب والعجم لخدمة هذه اللغة الشريفة، وهذا ما يفهم مما حكاه ابن جني في قوله: «وأنشدنا أبو عبد الله الشجرى يوما لنفسه شعرا مرفوعا وهو قوله:

نظرت بسنجار كنظرة ذي هوى ** رأى وطنا فانهل بالماء غالبُهْ

لأونس من أبناء سعد ظعائنا ** يزن الذي من نحوهن مناسبُهْ

يقول فيها يصف البعير:

فقامت إليه خدلة الساق أعلقت ** به منه مسموما دوينة حاجبِهْ

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج2، ص416.

فقلت: يا أبا عبد الله أتقول: دوينة حاجبِهْ مع قولك مناسبُهْ وأشـــانبُهْ؟ فلـــم يفهم ما أردت. فقال: فكيف أصنع؟ أليس ههنا تضع الجرير على القرمة علـــى الجرفة؟ وأومأ إلى أنفه. فقلت: صدقت، غير أنك قلت: أشانبُهْ وغالبُهْ، فلم يفهـــم وأعاد اعتذاره الأول. فلما طال هذا، قلت له: أيحسن أن يقول الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماءُ ** رب ثاو يمل منه الثواءُ

ومطلت الصوت ومكنته، ثم يقول مع ذلك:

ملك المنذر بن ماء السمائِي

فأحس حينئذ وقال: أهذا؟ أين هذا من ذاك؟ إن هذا طويل وذاك قـــصير. فاستروح إلى قصر الحركة في حاجبِهْ وأنها أقـــل مـــن الحـــرف فـــي أســـماءِ والسماءِ... والمروى عنهم في شغفهم بلغتهم، وتعظيمهم لها، واعتقادهم أجمـــل الجميل فيها، أكثر من أن يورد أو جزء من أجزاء كثيرة منه[1]» فإنـــك تـــرى الشاعر كيف أدرك طول الحركة وقصرها لكنه لم ينتبه منذ البداية إلى ما قصده ابن جني لاهتمامه بمعنى البيت وليس بمبناه، فتأمل. وحتى ابن جني تنبه إلى أن العلماء لم يزيدوا على أن ترجموا ما في نفوس العرب فأحسنوا، وفي ذلك يقول في "باب أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نـــسبناه إليهـــا وحملنـــاه عليها": «فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقـــصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور مالا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما فـــي أنفـــسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص240– 242.

وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه، غير متهم الرأى والنحيزة والعقل. فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل إلينا وكأنه حاضر معنا مناج لنا[1]» ثم ذكر بعض ما صرحت به العرب مما يفيد أنهم يعرفون شيئا من قوانين العربية، وقد ذكرت بعضا منها ولم أذكر بقيتها لوجودها في كتاب الخصائص في باب واحد يسهل على القارئ الرجوع إليها في الأصل، وبذلك أتفادى الإطالة. بل إنه استنتج من قول الشاعر:

رأى الأمر يفضي إلى آخر ** فصير آخره أولا

رأيا فلسفيا في اللغة، وهو أن العرب غيرت اللفظ الذي يكثر في الاستعمال قبل بداية استعماله لعلمها أنه سيستعمل بكثرة[2] مع ما في هذا الرأي من تعسف. ثم يعقد بابا صريحا لإثبات قدرة العرب على فهم سنن كلامها، وأن النحاة ما هم إلا تبع لها سماه: "باب في مشابهة معاني الإعراب معاني الشعر[3]" ولو قصد أن التشابه حدث صدفة لقال: مشابهة معاني الشعر معاني الإعراب، لأن الإعراب علم والعلم أشرف من الشعر، ولذلك يشبه الشريف بما هو أشرف منه وليس العكس، لكنه قصد أن للعرب معان في شعرها اتبعتها النحاة فأنشأت علم النحو، ولذلك كان الإعراب هو المشابه لمعاني الشعر لتقدمه زمنيا عن النحو، فافهم هذا. و تجد في الخصائص جملا توحي بأن العلماء ما أخذوا منهجهم إلا عن العرب، كأن يقول: «اعلم أن هذا موضع قد استعملته العرب، واتبعتها فيه العلماء[4]» أو يقول: «وأما اتباع العلماء العرب[5]» أو يروي مذهبا

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص248.

2 – ينظر:المصدر نفسه، ج2، ص31.

3 – نفسه، ج2، ص168– 178.

4 – نفسه، ج2، ص466.

5 – نفسه، ج2، ص469.

للعلماء ثم تكون حجته على صحته هو أن العرب فعلت مثل ذلك كقوله: «... وربما أفتى بالوجه الأضعف عنده، لأنه على الحالات وجه صحيح. وقد فعلت العرب(*) ذلك عينه[1]» وعندما يبحث في فلسفة العلاقة بين الاسم والمسمى في "باب في إضافة الاسم إلى المسمى، والمسمى إلى الاسم[2]" ويذهب إلى أن الشيء لا يضاف إلى نفسه يحتج بأن العرب تحل نفس الشيء من الشيء محل البعض من الكل، ويستشهد بأبيات شعرية ليس من الضروري سياقها في هذا الموضع لإمكان مراجعتها في بابها من الخصائص، ويكفي أن تعرف أن هذا الباب بناه ابن جني انطلاقا من فكر عربي تجسد في كلام شعراء العرب. ويقول عند شرحه لتجاذب الإعراب والمعنى في الوصف بالمصدر: «ويدل على أن هذا معنى لهم، متصور في نفوسهم قوله – فيما أنشدناه –:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل ** وضنت علينا والضنين من البخل

أي كأنه مخلوق من البخل لكثرة ما يأتي به منه... وأصل هذا الباب عندي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [3]» وأختم من حيث ختم العلامة ابن جني احتجاجه باجتهاد العرب ومعرفتهم لأصول كلامهم لتأكيد صحة النظريات التي ساقها في كتابه الخصائص بأغلاط العرب، وذلك أنهم يعرفون ضمنيا القواعد والقوانين التي تسير كلامهم، لكنهم لا يسمونها وليس لهم القدرة على التعبير عنها، ولذلك يغلطون، فقال في هذا الباب: «... فإن قلت: فمن أين

---

* – لاحظ معيار الصواب عند علماء العربية القدماء رحمهم الله رحمة واسعة، ومعيار الصواب عندنا اليوم هو إذا فعله الأوربيون أو قالوا به، فإن رفضوه فهو الخلق الذميم، والفعل المحرم، والعار الذي لا يزيله إلا قبولهم إياه فيما بعد، نعوذ بالله من الخذلان.

1 – ابن جني، الخصائص، ج2، ص492.

2 – نفسه، ج3، ص24.

3 – نفسه، ج3، ص259، 260.

لهذا الأعرابي – مع جفائه وغلظ طبعه – معرفة التصريف، حتى بنى (من ظاهر لفظ) ملك فاعلا، فقال: مالك. قيل: هبه لا يعرف التصريف أتراه لا يحسن بطبعه، وقوة نفسه، ولطف حسه، هذا القدر! هذا ما لا يعتقده عارف بهم، أو آلف لمذاهبهم، لأنه وإن لم يعلم حقيقة تصريفه بالصنعة فإنه يجده بالقوة[1]». وتنبه إلى قوله: هبه، فهو يفترض أنه لا يعرف التصريف، وإن كان لا يعتقد ذلك، وأضعف الأمور عنده أن له قوة عقلية يدرك بها قياس كلام العرب، وهو بهذه العبارة يكاد يمس ما يسمى بالملكة اللغوية التي لم يكتفشها الغرب إلا **البارحة مساء**، ورفعوا صيتها أيما رفعة، غير أن علماء العربية اكتشفوا الطريق إليها من فكر المتكلم العربي ولم يسمع بها أحد، بل اعتبرت كثير من النتائج في درس اللغة تخلفا واعوجاجا في المنهج بحجة قدمها، والحقيقة أنها لم تعتبر كذلك إلا لأن مكتشفها مسلم ولا حجة غيرها، فسرنا خلفهم في الطريق ولم يلتفت منا أحد، خوفا من أن يخسف بنا طبقا لقوله تعالى: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد﴾(هود81). ولله الحمد والمنة أن وفقنا للعمل بآية من كتابه العزيز.

لا أريكم إلا ما أرى:

وبعد هذا العرض لبعض ما توصل إليه العلماء بالاعتماد على ما تعتقده العرب في لغتها بفضل فطرتها السليمة يمكنني أن قول: إن كُنتُ أفهم المقصود من كلمة "الفطرة" الواردة في السؤال، فإني أخشى أن أذهب إلى استغلال العبارة "**لا تتدخل في خلق الله**" استغلالا غير صحيح، ومن ثَمَّ أجد نفسي بلا إرادة متجها اتجاها جبريا من الناحية الدينية، فكل ما أصابني وكل ما فعلته، ما هو إلا

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج3، ص275.

فطرة جبلت عليها، وليس لأحد أن يلومني، لكني إذا حققت نجاحا باهرا في أي مجال من المجالات: العلمية أو الاقتصادية أو الرياضية أو الأدبية، فإني سأطالب بجائزتي، لأنني بذلت جهدا معتبرا لبلوغ المرتبة التي بلغتها، وفي هذه الحالة؛ أمنع التواضع من شق طريقه إلي ليقول لي: قل ما عملت من شيء إنما هذا نتيجة لفطرة فطرت عليها! وبشكل أوضح: إذا وافقتني على تحكيم معيار الفطرة في حياتنا، فإني سأستعمله في الوقت الذي يناسبني، وآتي بألف حجة لدحضه عند معارضته لمصالحي. وعند قراءتك لهذا الكلام، أعلم أنه يتبادر إلى ذهنك أشياء كثيرة تشبه ما نحن فيه، لذلك أعرضت عن التفصيل استغناء بثقتي في فهمك كلامي، وعليك أن تعلم أن الكلام لا يحكم على صحته بمجرد تفسيره نظريا بل يحتاج إلى النظر في جانبه التطبيقي قبل رفضه أو الموافقة عليه. أما إذا نظرتُ إلى الفطرة كما نظر إليها الإسلام في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِسَانِهِ» فإني أعتبر الفطرة بابا من الأبواب الموصلة إلى الحقيقة، غير أنه باب غير آمن لوجود كثير من العوامل المشوهة له، وقد ذكر الأبوان في الحديث، لأنهما أهم هذه العوامل وخاصة من الناحية الدينية، ولا بأس أن أتعبك في سرد بعض العوامل المخلة بالفطرة، منها ما لقيه الطفل في صغره من معاملة فتنعكس على شخصيته بعد كبره، ومنها ما تلقاه من معارف ومبادئ فبنى كل شخصيته عليها، ومنها الأصحاب الذين رافقهم فترة المراهقة. والحالة المادية للإنسان لها أثر بالغ على فكره، وتحديد توجهه، لأنه إذا اضطره الفقر أو دفعه الغنى إلى سلوك طريق من الطرق، فإنه يصعب عليه التخلص منه وإن كان على علم بخطئه، وغيرها من العوامل التي تتجاذب الفطرة وتعمل على إفسادها.

قد توصلت وإياك إلى بعض ما يوصل إلى تمييز الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والخير من الشر، والصالح من الطالح، وهي الفطرة إلا أنها تعطى لبعض دون بعض، مع العلم بمعناها الدقيق، وإلا كانت كلمة حق أريد بها باطل. وهنا يحق لي ولك أن نفرح أن توصلنا إلى شيء ليس مطروحا في الطريق، وإنما بحثنا عنه بحثا حثيثا حتى استخرجناه من بين كثير من الألفاظ، وعديد من المعاني المتشابهات، ولا أظن أننا توصلنا إلى هذه النتيجة الرائعة بفطرتنا فلا نُحْمَدُ على عملنا، ولكننا توصلنا إليها بشيء آخر نحس به ولا نعرف له لحد الآن اسما، ولا نستطيع أن نحدد له رسما. لكننا سنبحث عنه علنا نجد عوامل أخرى توصل إلى الحقيقة.

أمثال وحكم حمقاء:

وقبل ذلك أردتُ أن أسألك، فإن لم تستطع الجواب أجبتُ نيابة عنك، ثم أعود بك إلى البحث عما بدأنا البحث عنه.

وإليك نص السؤال: أُثر عن العرب كثير من الحكم والأمثال، ورُبط كل مثل بقصة معينة قد تكون حقيقة، وقد تكون من تأليف شخص من الأشخاص. فلماذا لا نسمع في وقتنا أمثالا وحكما جديدة ليرويها عنا من بعدنا كما روينا عمن قبلنا؟

يسرني أن أجيب عن هذا السؤال تهربا من البحث عن الحقيقة والعوامل الموصلة إليها، وهذه الطريقة تعلمتها من دهاة الساسة وفحولهم في الكذب، وباختصار أجيب عن سؤالي قائلا: لا أعتقد أن عدم وجود أمثال وحكم في عصرنا يعود إلى سبب واحد، غير أن أهم سبب هو ضعف همة الناس وانشغالهم بمتاعب الحياة، وضعف الهمة في تزايد من عصر إلى عصر، فقلَّ أن

تجد كتابا قديما يخلو من الشكوى من هذا المرض العضال، فهذا الجاحظ –رحمه ورحمني الله– يصرح في كتابه الحيوان بعدم اهتمام الناس بقراءة الكتب المطولة لضعف هممهم، وهذا ابن قتيبة – رحمه الله– يبتدئ كتابه أدب الكاتب بشكوى يقول فيها: «فإني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين... وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت[1]» وهي مقدمة تعبر عن مدى تألم صاحبها من أثر ما لاحظه من ضعف الهمم، وهذا السيوطي يتوقف عن إملاء اللغة لما رأى طلبتها ضعفاء الهمة[2]، ولو تتبعت ما قاله العلماء في كتبهم عن ضعف همم قرائهم لكتبت في ذلك كتيبا، فإذا اشتكى الأوائل من ضعف همم الناس في طلب الأدب فكيف يكون حالنا اليوم؟

وقد حاولت – من باب الاستهزاء – قول بعض الأمثال في أوقات لا أجدني أحفظ فيها مثلا قديما مناسبا لحالي، ولا أستطيع ترك مكان المثل من الموقف فارغا، فأتجرأ على ارتجال مثل، وأستعمله بيني وبين نفسي، ولو تعلم مقدار سعادتي بحماقتي عندما أرتجل مثلا لحسدتني أشد الحسد، ولقلدتني في اكتساب شيء من هلوستي، لذلك لا أصفها لك حتى لا تنافسني على ما أحرزته من متعة بفضل قلة العقل وانعدام المسؤولية. غير أني لا أبخل عليك بما قلته فهاك بعضه:

– **أضيع من مطارية:** وذلك أن المطارية لا تستعمل إلا في اليوم الممطر، فإذا استعملها الفرد في وقت الحاجة إليها، فربما جلس في مقهى،

1– أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دط. بيروت: دس، دار المعرفة، ص01، 02.

2– السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج2، ص314.

أو ركب الحافلة، أو جلس تحت حائط ليمتص بجلده أشعة الشمس الهادئة، وكانت الحاجة إليها غير ملحة لتوقف الأمطار مؤقتا، تركها هناك وذهب، لعدم تمكن العادة منه لمصاحبتها، وهذا المثل يضرب في مواضع كثيرة، منها عند إضاعة ملف موظف من الموظفين غير أولي التملق من الرجال، أو ملف اجتماعي مقدم لدى إحدى دور البلديات وغيرها من الملفات، سواء في ثانوية، أو مستشفى، أو دائرة، أو غيرها. وقد يكون المثل في حالات مثل هذه، أقل بلاغة من الموقف، ولكن لا بأس أن أستعمله حتى لا أترك الموقف من غير مثل يضرب، أو بيت شعر ينشد، أو حكمة تقال. كما يصلح هذا المثل الرائع عند مخالفة موعد من المواعيد فتقول لصاحبك «موعدك أضيع من مطارية» إذا وافقتني على استعمال مثلي هذا في موقفك هذا، فستكون في حاجة إليه يوميا، فلا تنس أن تحفظه وتتذكره في المقام المناسب. ولك أن تستعمل هذا المثل عند رؤيتك لطفل عاق لأبيه، ومعنى المثل هنا هو أن تعب وشقاء الوالد في تربية ابنه هذا، ضاع سدى كما تضيع المطارية من صاحب الذاكرة الضعيفة في اليوم المشمس، وقس ما لم أقله على ما قلته تفهم هذا المثل وتحسن استعماله فيكون **خير مقال لكل مقام**، غير أن أصل استعماله هو جواب السائل عن حالة شخص:

مَلَّ مِنْهُ أَقْرَبُوهُ وَأَسْلَمَهُ المُدَاوِي وَالحَمِيمُ.

والله الموفق والهادي لما فيه الخير.

– **مزجر الكلب:** كما قلت مثلا ثانيا، إلا أني لم أخترعه اختراعا[1]، لكني استنتجته استنتاجا، واستنبطته استنباطا، وأقدمت على قوله إقداما، وتجشمت استعماله تجشما، فكان له أثر أيما أثر، وأصبح له صيت أيما صيت، وأمسى على كل لسان يخطه كل بنان، وهذه سمة أقوال الرجال، إذ:

لم تخلق الرجال إلا للسيف والقلم

فقلت: مَزْجَرَ الكَلْبِ. وهذه العبارة عند النحاة تحتمل تفسيرين، الأول: الأمر بتقدير فعل الأمر "قف" والثاني: الخبر بتقدير الفعل الماضي "وقف"، والمزجر في الحالتين اسم للمكان الذي يقف فيه الكلب مخافة الزجر، أي يبقى بعيدا[*]. لكنني لا أفسر لك ما أردته من بين الصيغتين (الأمر أو الخبر) حتى لا تتخلى عن مثلي في حالة تصلح فيها صيغة دون الأخرى، ولكنني أريدك أن تستعمله أكثر ما أمكن، وهذه الطريقة من الحيل التي بثثتها في ثنايا هذا الكتاب، فاحذر.

أما مقامات استعمال هذا المثل وسياقات الاستشهاد به فهي كثيرة أذكر منها: عندما تكون وسط قوم لا مصلحة لهم عندك ولك مصلحة عندهم، فإنهم يتهربون منك أيما تهرب، ويبتعدون عنك أيما ابتعاد، ويجتنبونك كل التجنب، ويزيدون قدر النصف منه إن وجدوه، فإن لم يجدوه استعاروا من البين والهجر وما أشبههما، ويعتبرونك غراب البين أزعجهم نعيقك، وليس صوتك لفظا مفيدا فارتطم، عندئذ قل: مزجر الكلب، أي: وقفت من هؤلاء مزجر الكلب.

1– قلت: «لم أخترعه اختراعا...» لأن هذه العبارة مشهورة، ذكرها سيبويه رحمه الله في باب "هذا باب ما شبه من الأماكن المختصة بالمكان غير المختص، شبهت به إذ كانت تقع على الأماكن" سيبويه، الكتاب، ج1، ص412.

* – وإن كانت العرب تقصد به القرب، إلا أن الكلام يفهم من المقام الذي يقال فيه.

ولا تحزن، فإن الأيام لابد أن تنقلب، وحاجتك مقضية إن شاء الله بهم أو بغيرهم، فإن لم تقض، فإن الحياة لم تبن على شيء واحد ولكن سافر تجد عوضا عمن تفارقه. ولن يشعروا إلا والزمان يضع زمامه في رقابهم ويقودهم إليك طوعا أو كرها، فيقفون أمامك، وفي هذه الحالة يصبح صوتك لغة يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وكلامك لفظ مفيد كانتقم، فقل لهم – إن شئت مقابلة الإساءة بمثلها–: مزجر الكلب، أي قفوا مني مزجر الكلب، ففي الحالة الأولى صلح الخبر، وفي الحالة الثانية صلح الأمر، فلا تتخلى عن إحدى الصيغتين. كما يستعمل هذا المثل عند اتهام أحدهم إياك بعادة من العادات التي ليست من ديدنك، وإلصاقه بك خلقا لم تتعود الخوض فيه، ولا الاقتراب منه، فإنه يمكنك القول: أنا وما تقول أحدنا في مجلس القوم والآخر لا يتجاوز مزجر الكلب، والمعنى أنه لا يقترب بعضنا من بعض كما لا يقترب الكلب من مجلس القوم، فإن وجد فيك بعد كلامك هذا، خصلة مما أنكرتَ، أو خليقة مما استبعدتَ، فليس عليك حرج إلا أن تقول: سها القوم فاقترب الكلب وجاوز حدوده، أفيلام أم يلام من تركه؟ وبهذا المثل تجد لك من خطئك مخرجا، ولا تعدم من هفوتك مهربا. فإن استعمل هذا السلاح في مقبل الأيام ضدك فلا عليك إلا أن تقول: أفلم يكن في القوم رجل رشيد؟ وبذلك لا تنطلي عليك حيلة أنت أبو عذرتها، ولا ينطبق عليك فخ أنت نصبته وأتقنت إخفاءه. **والقانون المتحكم في الحياة في عرف عامة الناس، والذي أريدك أن تعرفه وتعمل به أو تحذر من أن تخدع به على أقل تقدير، هو أن الحياة تتحكم فيها قوانين مؤقتة** يمكن تغييرها حسب ما يلائمني أنا دون غيري، فما هو اليوم صالح، يعتبر غدا أكبر المفاسد بمجرد مخالفته لما يعود علي بالفوائد، فمثل القوانين كمثل اللعاب في فم الإنسان، إذا كان في فيه تقبله وإذا طرحه خارجه اعتبره من الأشياء المقززة للنفس! فتأمل.

❖ **كأنه كرسي:** هذا التشبيه مع أنه اشتمل على أركانه كاملة عدا وجه الشبه، إلا أنه تشبيه بليغ عندي دون بقية البلاغيين، ولي الشرف الكبير أن أخالف الإجماع في حياتي ولو مرة واحدة، إذ أنني أعتبر نفسي أصبت وهم أخطأوا، وأني فهمت ما لم تدركه عقولهم، ووقفت على ما لم يوفقوا إلى الوقوف عليه، وتوصلت إلى ما لم توصلهم ألبابهم إليه، وفي تطاول الجاهل على العالم لذة لو عرفها العلماء لما أتعبوا أنفسهم في طلب العلم، ولا أسهروا عيونهم الجميلة في ضبطه، وتحريره، وحفظه، وتمييز صحيحه من سقيمه، فهذا قول ثقيل وذاك غثاء كغثاء السيل، صاحبه مرتاح البال، هادئ النفس أقبلت الدنيا أو أدبرت. لا بأس علي ولا عليك ما دمنا نعرف أننا في واد والعلم في واد، ولكن حجتي على ما أقول هو أن الشخص يشبه بالكرسي إذا صلح لوظائف مختلفة، إذ أن المتعب يجلس على الكرسي، وعليه يشبع الجائع، ويكرم الضيف، وعليه أخذنا العلم عن أساتذتنا، وعليه يقرر مصير الشعوب وتتخذ القرارات في حقه، كما أنه متميز بصفة خطيرة جدا، بها تضيع الأوقات، وتنقضي الأعمار وهي أنه يبدو ساكنا وفي حقيقة أمره هو متحرك بسرعة كبيرة جدا، لكنه لا ينقلك من مكان إلى مكان، ولكنه ينقلك من زمان إلى زمان، ولهذا يمكنك تشبيه الشخص المخادع الذي ينقلك من رأي إلى رأي، أو يتلاعب باللغة فيجعل القبيح جميلا، والجميل قبيحا، أو يستدرجك ليعرف بعض الأسرار منك دون شعورك بذلك، بالكرسي.

– **مدح تاجر:** التاجر كما هو معروف واسطة بين المنتج والمستهلك، ليس له أي دور في إنتاج السلع، والفضل كله يعود إلى المنتج، وإنما يتوقف عمل التاجر عند نقل السلع من المنتج إلى المستهلك، فهو يتقاضى ثمن هذا العمل، وحتى يكون تاجرا ناجحا، عليه أن يشتري السلعة بأقل ثمن ممكن ويبيعها بأكبر

ثمن ممكن، ولذلك؛ تجده يذم السلعة أمام المنتج ويبين عيوبها ليحط من قيمتها، فإذا اشتراها انقلب إلى مدحها ليزينها أمام المستهلك ويرغبه في اشترائها، ولو فكرت قليلا في الموضوع لوجدت أن **هدف التاجر من ذم السلعة هو الحصول عليها وهدفه من مدحها هو التخلص منها، وفي هذا شيء عجاب.**

ولعلك لاحظت أن في المثل معنى نحتاج إليه في حياتنا لمواجهة بعض الأشخاص الذين يمدحوننا لا لحبهم إيانا ولكن يمدحوننا لحاجة في أنفسهم.

دور العقل:

ثم أعود إلى البحث عن الوسائل المقربة من الحقيقة بعد هذه الاستراحة فأقول لك: ما تقول في العقل أهو موصل إلى الحقيقة؟ وهل العقل مناقض للفطرة؟

سأحاول أن أجيب معك ولا أتركك تستأثر بشرف التفكير دوني، فإن أصبتَ كنتُ شريكك في صوابك، وإن أخطأتَ حملتك تبعات الخطأ، وفي بحثنا عن جواب هذا السؤال لابد لنا من رسم منهج نسير عليه، وأول شرط أشترطه عليك ألا ننقض كلامنا الذي بنينا عليه مسيرتنا هذه، و**لنكن مستعدين للتضحية بما لم نقل، في سبيل الحفاظ على ما قلنا**، وإلا أجبرنا على العودة إلى نقطة البداية، ولا أظن أن ما تبقى من طاقتنا كاف لذلك.

لا بد من العقل للبحث عن الحقيقة، ولا بد منه للعمل على طمس ما أشرق منها، وهذا ما لا يمكننا القول بخلافه لشهرته، ولكبر حجمه. فلسنا في حاجة إلى تكبد المشاق من أجل طمس هذه الحقيقة، ولو أمكننا ذلك بغير خسائر مادية ولا معنوية، لأخفينا هذه النقطة حتى نتجنب البحث عن كيفية عمل العقل وعلاقته ببقية العناصر، لكن لا بأس من الثرثرة في هذا الموضوع المعلوم،

وأول نقطة أود البداية بها – وقد تكون الأخيرة – أن العقل لا يعترف بوجود حقيقة الشيء في مجال واحد، وإنما تتوزع الحقيقة على مجالات مختلفة، ولذلك صعب الوصول إليها، فحقيقة الكلمة فقط تتوزع على عدة ميادين:

1. **المعنى:** وينفرد به علم خاص، ولذلك ألفت المعاجم على اختلاف أنواعها وتباين مناهجها، ومع ذلك لم تستطع ضبط معاني الكلمات نظرا لحرية المتكلم في استعمالها، فقد جمع العلماء لكلمة "عين" مثلا، عدة معان نذكر منها: العَيْنُ الباصِرَةُ، وأهلُ البَلَدِ، وأهلُ الدارِ، والإصابَةُ بالعَيْنِ، والإنْسانُ، ومنه: ما بها عَيْنٌ، أي: أحَدٌ، والجاسُوسُ، وجَرَيانُ الماءِ، والجَماعَةُ، والحاضِرُ من كلِّ شيءٍ، وحَقِيقَةُ القِبْلَةِ، وحَرْفُ هِجاءٍ حَلْقِيَّةٌ مَجْهورَةٌ، وخِيارُ الشيءِ، ودَوائرُ رَقِيقَةٌ على الجِلْدِ، والدَّيدَبانُ، والدِّينارُ، والذَّهَبُ، وذاتُ الشّيءِ، والرِّبا، والسَّيِّدُ، والسَّحابُ من ناحِيَةِ القِبْلَةِ، أو ناحِيَةِ قِبْلَةِ العِراقِ، أو عن يَمينِها، والشمسُ، أو شُعاعُها، وهو صَديقُ عَيْنٍ، أي: ما دُمْتَ تَراهُ، وطائِرٌ، والعَتِيدُ من المالِ، والعَيْبُ، وكبيرُ القَوْمِ، والمالُ، ومَصَبُّ ماءِ القَناةِ، ومَطَرُ أيَّامٍ لا يُقْلِعُ، ومَنْظَرُ الرَّجُلِ، والمَيَلُ في المِيزانِ، والناحِيَةُ، ونِصْفُ دانِقٍ من سَبْعَةِ دَنانيرَ، والذهب عامة، والنَّظَرُ، ونُقْرَةُ الرُّكْبَةِ، وواحِدُ الأَعْيانِ، للإخْوَةِ من أبٍ وأُمٍّ، وهذه الأُخُوَّةُ تُسَمَّى: المُعايَنَة. ونَظَرَتِ البلادُ بعَيْنٍ أو بعَيْنَيْنِ: طَلَعَ نَباتُها. وأنتَ على عَيْني، أي: في الإكْرامِ والحِفْظِ جميعاً. وهو عَبْدُ عَيْنٍ، أي: كالعَبْدِ ما دامت تَراهُ. وها هو عَرْضُ عَيْنٍ، أي: قريبٌ. ولقيتُه أوَّلَ عَيْنٍ: أوَّلَ شيءٍ. ثم لما تعود إلى كلام العرب في فترة الاحتجاج وبعدها تجدها تستعمل هذه الكلمة بمعان لم ترد في المعاجم فتقول:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ** ولكن عين السخط تبدي المساويا

وتقول:

إلى أن ترى عين الشهادة عينه ** فتهوي إليه كل رجراجة الردف

وتقول:

أو لم يسل عين النـــــــدى ** حتـــى تضلـع كـــل ظام

وتقول:

والدهر كم لحظته مـــــــن ** إجلالـــه عيـــن احتـــرام

فجعلت للردى، وللرضا، وللسخط، وللشهادة، وللندى، وللاحترام عيـون ولأشياء أخرى لم يتسن لي جمعها، ولن يتسنى لأحد إحصاؤها، ذلك أن النـاس بعده سيحدثون معان لم يذكرها، فأنى للإنسان أن يفهم حقيقة العالم إن عجز عن فهم معنى كلمة واحدة.

2. **الصوت:** ويختص به علم كذلك والذي ينقسم بدوره إلى قسمين اثنين: علم الأصوات الذي يبحث في الوظائف وعلم الأصوات الذي يدرس الأصـوات مجردة.

3. **البنية:** التي يهتم بها علم الصرف.

4. **الحركة في اللغة العربية** أو بالأحرى **الإعـراب** والعـدد والتـذكير والتأنيث والتعريف والتنكير وغيرها. وهذا كله من موضوعات علم النحو. فهذه بعض مستويات الكلمة التي يود الإنسان الوصول إلى حقيقتها ولكنه لم يـستطع دراستها جملة واحدة. مع العلم أنها في الحقيقة تنطق فـي وقـت واحـد بكـل خصائصها.

ولو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا له مجالات للنظر منها لنعـرف حقيقتـه، فعالم النفس ينظر إليه بطريقة، والطبيب يراه بطريقة، والمؤرخ يـراه بطريقـة أخرى وهكذا، فمن أراد فهم الإنسان على حقيقته فعليه معرفة كـل مـا يتعلـق

بجسمه، وكل ما له ارتباط بأخلاقه وتصرفاته، وكل ما يدور في نفسه، وكل شيء يربطه بمجتمعه... وهذا ما لا يتسنى لأحد، وإن كانت كل هذه المعلومات مشتتة بين العلماء كل مختص يعرف الشيء الكثير في تخصصه، ولكنه يجهل ما في التخصصات الأخرى، وبذلك لا يستطيع الدارس رؤية كل ما يتعلق بالشيء جملة واحدة ولكنه كواقف على جبل لا يرى إلا ما يحيط به، فإذا انتقل إلى مكان آخر من الجبل نفسه اختفى عنه الجزء الذي كان يراه وأصبح يرى جزءا آخر لم يكن يراه من قبل، وليس له من حل ليراهما معا إلا أن يرتفع إلى الأعلى، لكنه لن يرى – في هذه الحالة– إلا ما كبر حجمه، أما التفاصيل الدقيقة، والأشياء الصغيرة فتختفي عنه، وفي البحث عن الحقيقة لا يُفرَّق بين الكبير والصغير، وإلا لأمكن اختفاؤها فيما لا نعتقد وجودها فيه.

ما دهاك يا سؤال:

وهنا أجد سؤالا يقحم نفسه وهو: ألا يمكن للعقل أن يكتفي بجانب ويعرف من خلاله بقية الجوانب قياسا واستقراء؟

دعني أجيب عن هذا السؤال اقتصارا على اختصاص اللغة والأدب العربي، لأنني إن عرفت شيئا أو اطلعت على كتاب، أو جالست أستاذا، أو أنجزت بحثا فإنه لا يعدو أن يكون في هذا الميدان، بغض النظر إن أحسنت أو أسأت. وجوابا عن هذا السؤال أقول:

يحدث أن يكون الحكم صادقا على أشياء كثيرة، ويظنه الدارس لميدان معين أنه خاص بتخصصه أو لا يحب أن يحشر أنفه في تخصص غيره، ولذلك أغتنم الفرصة ولا أبخل عليك لأن نتطفل على **بعض ما خصص وحقه التعميم**. غير أنه يجب عليك أن تتمكن من التوفيق بين المتشابهين اللذين يظن الناس أنه

لا وجود للتشابه بينهما وتفتح أمامك باب "جمع الأشباه من حيث يغمض الاشتباه" الذي قال عنه ابن جني: «هذا غور من اللغة بطين يحتاج مجتابه إلى فقاهة في النفس، ونصاعة من الفكر، ومساءلة خاصية ليست بمبتذلة ولا ذات هجنة[1]».

فلو سألتك عن وجه الشبه بين المذكر والمؤنث من جهة، وبين البناء والهدم من جهة أخرى، لصعب عليك الأمر، لكنك إذا قرأت قول سيبويه: «واعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث، لأن المذكر أول وهو أشد تمكناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أن " الشيء " يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أو أنثى؟ والشيء ذكر فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخف عليهم وتركه علامة لما يستثقلون[2]» ففي هذا القول يذهب سيبويه – رحمه الله وإياي– إلى أن المذكر **أول** أي **أصل**، ولذلك كان **أخف وأسهل** في الإعراب والصرف، وذلك مقتضى قوله: أشد تمكنا. واحفظ قوله: إنما يخرج التأنيث من التذكير لتفهم ما يلي من الكلام، ولما تغلق كتاب سيبويه مع احترامك لهذا الكتاب العظيم الذي يشهد على عبقرية أهل العربية وعلمائها، وتفتح مقدمة ابن خلدون – رحمه الله– فإنك تجده يقول: «الهدم **أيسر** من البناء بكثير لأن الهدم هو رجوع إلى **الأصل** الذي هو العدم، والبناء على **خلاف الأصل**[3]» ألا ترى أن فلسفة سيبويه في النحو هي فلسفة ابن خلدون في التاريخ؟ إلا أن كلا منهما ينظر إلى القضية في تخصصه، وهذا ما يمكن الاستشهاد فيه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج3، ص319.

2– سيبويه، الكتاب، ج1، ص22.

3 – ابن خلدون، المقدمة، ص322.

يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ الإسراء (49، 50،51)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: 77، 78، 79). فالحجة التي أقامها الله في كتابه الكريم على الجحدة أنه خلقهم من عدم ثم أماتهم فإذا أحياهم مرة أخرى، فليس ذلك بأغرب من خلقهم الأول لو كانوا يتفكرون، وإنما بنيت الحجة في النصين القرآنيين السابقين على أن العودة إلى الأصل أيسر من الخروج منه، وجعل الحياة أصل ثان حسب الترسيمة التالية:

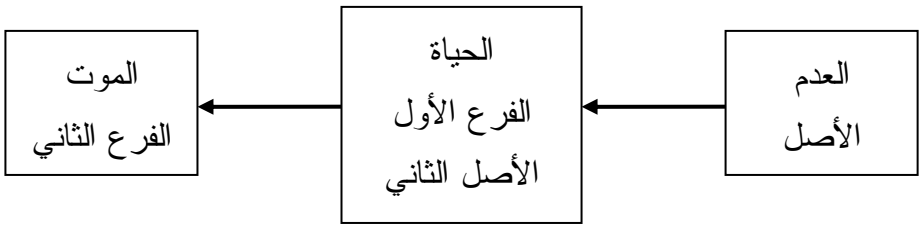

وما عليك إلا أن تتبع الكلمات (أول) و(أصل) و(أسهل) في النصوص التي أوردتها لتفهم هذا المبدأ، ولا تنس أني أريد من خلال هذا الكلام أن أثبت أن هذا المبدأ ليس خاصا بالنحو وحده، وإنما يصدق على ميادين مختلفة، وما علي ولا عليك إلا أن نفكر في موضعه من كل مجال.

لنترك هذا المبدأ جانبا ما دمت أثق في فهمك، ولننتقل إلى مبدأ آخر، فأسألك عن وجه الشبه بين الإنسان وحركة الإعراب، فإنك ولا بد واجد لهما عدة أوجه شبه، غير أنني أساعدك على الإجابة وأطلب منك أن توازن بينهما من ناحية **الاستقرار والتنقل**. ولا أظن أنه يتبادر إلى ذهنك غير مصطلحي البناء والإعراب.

لأن العرب كانت بدوا وحضرا، أما البدو فكانوا ينقلون بيوتهم من مكـــان إلى مكان، وأما الحضر فكانوا يسكنون في مكان واحد لا يحيدون عنـــه، فمثـــل حركة البناء كمثل الحضر، ومثل حركة الإعراب المتغيرة بتغير موقع الكلمـــة من الإعراب كمثل البدو.

فإن اعتبرت هذا الكلام غريبا، واعتقدته تعسفا من خيالي الواسع، وإقحاما لشيء في غير موضعه، فاثلج صدرك بقول العلامة ابن جني معرفـــا البنـــاء: «وهو لزوم آخر الكلمة ضربا واحدا: من السكون أو الحركة، لا لـــشئ أحـــدث ذلك من العوامل. وكأنهم إنما سموه بناء لأنه لما لزم ضربا واحدا فلـــم يتغيـــر تغير الإعراب سمي بناء، من حيث كان البناء لازما موضعه، لا يـــزول مـــن مكان إلى غيره، وليس كذلك سائر الآلات المنقولة المبتذلة، كالخيمة والمظلـــة، والفسطاط والسرادق، ونحو ذلك[1]» فإنك تجد أن نظام حيـــاة البـــشر ونظـــام الحركات الإعرابية واحدا، وإنك تستطيع التوسع في هذه الفكرة فتجـــد ميـــادين أخرى تشارك الحياة الاجتماعية للإنسان والحركات الإعرابية في هذا النظـــام، ولابد أنك تنظر إلى الطبيعة لتجد ما تبحث عنه وشرطه أن يتحقق في ما وجدته الثبات تارة والتنقل تارة أخرى، غير أن الإمام الشافعي رحمه الله لم يترك لـــي الفرصة في التفكير فقال رحمه الله:

ما في المقام لذي عـــقل وذي أدب ** من راحة فدع الأوطـــان واغتـــرب
ســـافـــر تجد عوضا عمن تفارقه ** وانصب فإن لذيذ العيش في النصـــب
إني رأيت وقوف الـــماء يفـــــسده ** إن ساح طاب وإن لم يجـــر لم يطـــب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست ** والسهم لولا فراق القوس لـــم يصب

---

1 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص37.

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ** لملها الناس من عجم ومـــن عرب
والتبر كالتــرب ملقى في أماكــنه ** والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هـــذا عــز مطلبــه ** وإن تغــرب ذاك عـــز كالــذهب[1]

غير أن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله أضاف شرف المتحرك على الساكن. وهذا ما يجب أن تحذره كل الحذر لأنه قد يؤدي بك إلى الغلط.

ومن باب تداخل ميادين مختلفة واشتراكها في مبدأ واحد ما ذكره الجاحظ رحمه الله وإياي في تعريفه البلاغة، ومدار قوله حول: إصابة المفصل، ووضع الهناء مواضع النقب، فالجاحظ يرى أن الجزار الذي يصيب المفصل وصــاحب الإبل الذي يضع الهناء مواضع النقب والخطيب الذي يضع كلامــه مواضــعه سواء وإن اختلفت الميادين المتحدث عنها، وإني أضيف قول العرب: "إنَّهُ لَــيَعْلَمُ من حيث تؤكل الكتف".

وظل النحاة واللغويون يتحدثون عن السليقة اللغوية وعن نــصاعة كــلام الأعراب وفساد لغة من خالط العجم، إلى أن جاء العلامة ابن خلــدون – قبــل مجيء المسمى نعوم تشومسكي– وبيَّن أن الإنسان إذا أكثر من حفظ كلام العرب الفصحاء حصلت له الملكة اللغوية[2]، ثم استعمل المبدأ نفسه وبين أن الــشاعر إنما اكتسب ملكته في الشعر لكثرة محفوظه[3] وأن الفساد في الأساليب ومخالفتها لأساليب العرب لا تحصل بمخالطة العجم فحسب، وإنما تحصل بالإكثــار مــن

1 – أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، دط. الجزائر: دس، دار الهدى، ص16.
2– ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص508.
3– ينظر: المصدر نفسه، ص521– 531.

حفظ كلام العلماء أيضا[1]. وبذلك يكون قد أجاب عن سؤال ظل يحير النقاد قديما، والذي يبحث عن كون الشعر إلهاما أو صناعة.

ويمكن أن أتوسع وإياك في هذا المبدأ فنقول: لا يمكن للإنسان أن يدرك ما في الكون إلا من خلال المقارنة، فإذا رأى شيئا، أو سمع كلاما، أو حمل ثقلا، حكم عليه بمقارنته بما اعتاده، فالتاجر بكثرة ما يزن السلع تحصل له ملكة تمكنه من تقدير الموازين قبل وزنها وقلما يخطئ بمقدار كبير، والبنَّاء يحفظ المقاييس وما يلزمه من مواد بناء، فبمجرد النظر يمكنه تقدير ما يكفيه لبناء ما أراد بناءه، والجزار يمكنه معرفة وزن لحم الحيوان قبل ذبحه وسلخه لكثرة ما خالط هذه المهنة، والسارق يكاد يميز الرجل الذي يحمل مالا في جيبه ممن لا يحمل لتجربته في صناعته، وهذا معناه أن الملكة ليست خاصة باللغة والشعر فحسب، وإنما تحصل الملكة من كل صناعة أكثر الإنسان من مزاولتها فيرسم في ذهنه معيارا يقيس عليه، ولذلك قال العلامة ابن خلدون رحمه الله في الفصل الثاني والعشرين: «من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى، ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء[2]».

ولما كان الكون متشابها، انتبه سوسور إلى أن اللسانيات تندرج ضمن علم العلامات سماه السيميائيات، ولو أراد تحديد اللغة لوجدها تندرج ضمن وسائل الاتصال التي يستعملها الإنسان في حياته، ولو فعل ذلك لكان مقصرا، لأن نظام التواصل البشري نفسه جزء من أنظمة أخرى أعم وأشمل. فلو حللنا اللغة لوجدناها حروفا وكلمات وجملا ونصوصا، ولو نظرنا إلى الناس لوجدناهم

1- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص530، 531.

2- نفسه، ص375.

أفرادا وأسرا وأقواما وأمما، ولو نظرنا إلى الماء لوجدناه قطرات وجداول وأنهارا وبحارا ومحيطات، وهكذا الكون كله يشبه بعضه بعضا، وهذا دليل على وجود خالق واحد لهذا الكون، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنبياء (22). وإنما مشكلة العقل أن يخطئ استعمال هذا المبدأ فيشبه شيئا بشيء لا يشبهه.

وثمة نقيصة أخرى مازالت تلاحق العقل البشري وهي **القصور**، فلم يستطع العقل معرفة ما وقع في الأمم الغابرة معرفة دقيقة وإن كان الأثر معه، كتحديد طريقة بناء الأهرمات. كما عجز العقل عن معرفة الطريقة التي وجد بها الكون بدقة، وما قاله العلماء في هذا الموضوع ما هو إلا ضرب من الافتراض الذي لا دليل عليه، لقد عجز العقل عن معرفة حقيقة الإنسان بحد ذاته، من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين سيمضي؟

ولنعد إلى ميدان اللغة والأدب ما دام الكتاب هلوسة في اللغة والأدب، فأقول: لقد حاول العلماء تتبع معاني الكلمات، وضبط مقاييس إعرابها، والبنية الصوتية والصرفية للكلمات، واهتم بدراسة اللغة بالنظر إليها من حيث إنها ظاهرة اجتماعية، الهدف منها التواصل بين الناس، لكنه لما وصل إلى البحث عن طريقة نشأتها لم يستطع أن يحرك ساكنا، واعتبر هذا الموضوع خارجا عن الدرس اللساني. والحقيقة أن هذا من المغالطات التي تخدع كثيرا من الناس، وإلا فما لإلغاء البحث عن نشأة اللغة من البحث العلمي من سبب إلا عجز العقل البشري عن الوصول إلى نتيجة، ومن المفروض أن يصرح العجزة عن عجزهم ويعيدون العلم المطلق إلى العليم الخبير.

ولما كان الإنسان لا يعلم الغيب، وليس بإمكانه معرفة ما كان في الأزمان الغابرة، وما يكون في المستقبل، ولا يمكنه القيام بالعدل الذي يأخذ حق الضعيف

من القوي، كان في حاجة ماسة إلى الوحي ليتدارك نقائصه، وبذلك أكون وإياك قد توصلنا إلى أن الدين من السبل الموصلة إلى الحقيقة، والحمد لله الذي هـــدانا للإسلام.

خاتمة الهلوســـــة:

في نهاية هذه الهلوسة التي مَنَّ الله عليَّ بأن وفقني إلـــى إخراجهـــا مـــن صدري، وإلا ألحقت بي ضررا خطيرا، وسببت لي أذى كثيرا، يطيب لـــي أن أختمها بقولي:

إني لما نظرت إلى الناس قديما وحديثا وجدتهم تغيروا، إذ وجدت النـــاس قديما مصدقين الدراويش وأشباههم من المجانين، معتبرين كلامهم طلاسم حلهـــا ينبئ بما يخفيه الغيب، وما تنطوي عليه الأيام القادمة، فإن كان خيرا استبشروا، وإن كان شرا تطيروا – ولا ينجي حذر من قدر– مصدقين كلام مشايخ القريـــة وكبار السن منهم، لأنهم يخبرونهم عن أيامهم الماضـــية، وبطـــولات أجـــدادهم الخالدة. مصدقين أحلام منامهم، وعلامات الكون من نعيـــق الغـــراب، ونقيـــق الضفادع، وحركة السحاب، كلها تأتيهم بأخبار الأحبة وإن لم تتكلم؛ مصدقين كل شيء لا يعرفون للصدق ضدا، حتى البيع، والشراء، والكراء، والزواج، يتوقف على تصديق بعضهم بعضا، فلا يحتاجون إلى وثائق تحمي أحدهم مـــن مكـــر الآخر، هكذا كانوا.

وأصبحوا يكذّبون المتسولين، ويشكون في صدقهم. لذلك؛ لا يمدون إليهم يد المساعدة إلا لمن عرفوا وتأكدوا من حاجته للصدقة، أصبحوا يـــشكون فـــي التجار فيقفون منهم موقف الشرطي من السارق، فيزِنون السلعة بأنفسهم، ومـــع ذلك لا يأمنون غشهم وسوء معاملتهم.

أصبحوا يتحفظون في معاملتهم تجاه الأطباء، ويعتقدون أن العلاقة بيـــنهم علاقة مصالح، مع شـــرف المهنـــة وإنـــسانيتها. أصـــبحوا لا يثقـــون فـــي الصحافة، إلا أنني أجد قول الجاحظ: "ليس يفي حسن الفائدة لكم بقـــبح الجنايـــة

عليهم[1]" مخرجا لهم، وعلة مقبولة منهم، مع تأويل كلامه واستخراج معناه. أصبحوا لا يسمعون كلام الساسة فضلا على أن يصدقوه، لما اعتقدوه في نواياهم، وعرفوه في تصرفاتهم، فألحقوا بهم ما كان منهم وما لم يكن. أصبحوا لا يثقون بأحد من العالمين، وأصبحت مصالحهم الشخصية هي همهم الأول والأخير، ظنا منهم أنهم جمعوا معاني الحياة في نقطة واحدة يسهل عليهم استغلالها. غير أن الحقيقة تثبت تشتت أمورهم، وتسرب شقوق التصدع في أمتهم. ومع أن التعميم ضرب من الخطل، إلا أن الكلام يحمل على العرف، والله المستعان. لما ظننت هذا واعتقدته لم أرد أن أوجه كلمتي في خاتمة الكتاب إلى جميع الناس، ولم أرد أن أجعل الكتاب خاليا من خاتمة، وما كان أمامي إلا أن أخص بكلامي صنفين من الناس حتى لا أغمط حقهم، ولا أترك الفرصة لغيرهم للإنصات لكلام غير موجه إليهم فأقول:

إلى قراء الكتاب:

دعوني أنام، وعندما أستيقظ سأحل جميع مشاكلكم، ولا تحاولوا أن تفكروا أثناء غيابي، فالأزمة تحتاج إلى رجل محنك مثلي. وللأسف، لا يوجد بينكم أقراني، ولن تجدوهم ولو بحثتم عنهم بحثا حثيثا، ثم لا تقلقوا لأن نومي في مصلحتكم ما دمت باحثا لكم عن مخرج أكيد ومن دونه لا أفعل شيئا، ثم إنه لن يدوم طويلا. انصرفوا، واهتموا بلقمة عيشكم التي تبقيكم على قيد الحياة حتى أستيقظ، واحصلوا عليها دون إثارة الفوضى والضجيج لأن ذلك ينغص علي راحتي، وعليكم أن تفكروا من الآن في تحضير تكاليف الحفل الذي سيقام

1- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البخلاء، ط2. الجزائر: 1994م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص17.

بمناسبة استيقاظي المبارك؛ واعلموا أنه من حظكم أن كنتم تملكون رجلا مثلي وأني تواضعت إلى درجة أني لم أنكر انتمائي إليكم، وذلك لخصلة حميدة عهدتها فيكم وهي أني لما أحدثكم تصفقون، سواء أفهمتم كلامي أم لم تفهموه. صفقوا، صفقوا، فإني أحب التصفيق. وكيف لا أحبه وقد سمي في القرآن صلاة؟

أيها المخلصون لي: إذا غاب عنكم شيء خلف جدار، أو جبل، أو سحاب، فلا تمدوا أعناقكم لتروه وتعرفوا حقيقته، فإن ذلك يتعبكم ويؤثر على صحة عيونكم الجميلة، وذلك يؤلمني كثيرا. بل ارفعوني إلى الأعلى قدر استطاعتكم، وضحوا بما تملكون لرفعي، وأنا أخبركم عما حجب عنكم.

أيها المخلصون لي: عاهدوني على أن أرى ولا ترون، وأفكر ولا تفكرون، وأتحدث وتصفقون. وأعاهدكم على أن أصفكم بالعظمة، والشجاعة، والنضال، وأخواتهن.

هذه حقوقكم، وهذه واجباتكم، فاحترموها إلى أن أستيقظ والسلام.

إلى المجانين في كل مكان:

أنتم الذين فرقتكم متاعب الحياة، وشتتت شملكم ظروف المعيشة، وغمرتكم سحب النسيان، وفرضت عليكم ضريبة لم تنالوا منها شيئا، ولم تعرفوا سبب خضوعكم لدفع تكاليفها، ووجه توجيهها إليكم بالذات.

أنتم الذين ضحيتم، وتنازلتم، وتسامحتم، وما عرفتم للصبر حدا، ولا للأخلاق النبيلة منتهى، إلا أنكم لم تجدوا من ابتسامة تنير وجوهكم الطيبة، وتشفي نفوسكم الكليلة المتعبة، فرحتم تبحثون عن مخرج ينجيكم، وتتمنون منبرا ترفعون فيه أصواتكم قائلين:"أيها الناس إننا هاهنا موجودون، فاذكرونا فإننا معكم على أرض واحدة ولكننا لا نتكبر كما تتكبرون" فوجدتم طريق الجنون

سبيلا فسلكتموه، ومنهجا صحيحا فاتبعتموه، وبيتا آمنا فسكنتموه، وحصنا حصينا فحماكم وحميتموه، فقلتم ما في أذهانكم ولم تبالوا برضى غيــركم أو ســخطهم. ولكوني أحدكم فإني أهدي إليكم تحياتي بمناسبة عيدكم المبارك وكل الأيام عيــد لكم، فعيدكم سعيد وكل عام وأنتم بخير.

فهرس المصادر والمراجع:

1. المصحف الشريف.

2. الإبشيهي، شهاب الدين بن أحمد أبو الفتح، المستطرف في كل فن مستظرف، شرح إبراهيم أمين محمد، دط. دم: دس، المكتبة التوقيفية.

3. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، أخبار الأذكياء، ط1. بيروت: 1424هـ، 2003م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

4. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، دط، مصر: دس، دار الحديث بالأزهر.

5. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دط. بيروت: دس، المكتبة العلمية.

6. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة، ضبط محمد الإسكندراني، ط2. بيروت: 1419هـ 1998م، دار الكتاب العربي.

7. ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تعليق أحمد حسن بسج، ط1. بيروت: 1418هـ، 1997م، دار الكتب العلمية.

8. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دط. بيروت: دس، دار المعرفة.

9. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق يوسف علي بديوي، دط. الجزائر، بيروت: دس، دار الفكر، دار ابن كثير.

10. أبو العباس، محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، دط. بيروت: دس، مؤسسة المعارف.

11. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، دط. الجزائر: 1989م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية.

12. الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، فقه اللغة وأسرار العربية، شرح وتعليق ديزيره سقال، ط1. بيروت: 1999م، دار الفكر العربي.

13. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، ط2. الجزائر: 1994م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

14. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دط. بيروت: دس، دار الجيل.

15. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تقديم فوزي عطوي، دط. بيروت: دس، الشركة اللبنانية للكتاب.

16. سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1. بيروت: دس، دار الجيل.

17. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبط فؤاد علي منصور، ط1. بيروت: 1418هـ 1998م، دار الكتب العلمية.

18. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، ديوان الشافعي، دط. الجزائر: دس، دار الهدى.

19. ابن المقفع، عبد الله، كليلة ودمنة، بعناية محمد موهوب بن حسين، دط. الجزائر: دس، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

فهرس الموضوعات:

الإهداء..... 05
مقدمة..... 07
أسباب وظروف تأليف الكتاب..... 09
مميزات الكتاب..... 11
أصدقك القول فاصدقني الاستماع..... 13
بداية الهلوسة..... 41
تصحيف خطير..... 43
محاصرة الكذب..... 43
اختيار الأصعب..... 48
أكذوبة الحياة..... 49
متاهة البطة والدجاجة..... 50
هلوسة مع النحاة ومصطلحاتهم..... 52
مشابهة قواعد النحو للواقع..... 54
تعلم المكيدة..... 57
هلوسة في اللغة..... 60
دحض الأكذوبة بالعودة إلى الأصل..... 63
أكذوبة المبادئ..... 68
الغاية والقيمة..... 70
هل تفهم ما تقول؟..... 72
فهم خاطئ..... 73
الجاحظ وابن جني معنا..... 74
احذر الفعل يلزم..... 77
هموم الناس..... 77

بعر كبش الجاحظ وأثره على الدرس اللغوي..... 81
المال..... 90
وقفة مع ابن جني..... 91
لا أريكم إلا ما أرى..... 99
أمثال وحكم حمقاء..... 101
دور العقل..... 107
ما دهاك يا سؤال..... 110
خاتمة الهلوسة..... 118
فهرس المصادر والمراجع..... 122
فهرس الموضوعات..... 125

هذا الكتاب

من قرأ هذا الكتاب ودل غيره عليه، فإنه ينتقل مما يكره إلى مـــا يحـــب، فإن كان راغبا في الزواج تزوج بإذن الله، ومن كان وزوجته كالمريض وعلته، سهل عليه الخلاص منها، ووجد بدلا عنها أو بقي أعزب وحيدا إلى آخر عمره لا يحفظ غير قول الحكيم: "الوحدة خير من جليس السوء"، ومن استعصى عليه أمر، أو ثقل عليه دين، أوكسدت سلعته في المحل، فإنه بقراءة هذا الكتاب يذهب عنه الغم والهم بإذن الله.

وإذا قرأته عانس تزوجت، أو اطلعت عليه عاقر أنجبـــت، أو تـــصفحته امرأة متزوجة بزوج فظ غليظ القلب فإنه ينقلب من وحش إلى خروف وديـــع، فكره وجهده منحصران في مصلحتها ومصلحة أمها، ومبتعد عن طاعـــة أمـــه وأبيه، فإن قرأه الزوج انقلب عليها، وأذاقها أضعاف ما حذرت، والغلبة لمن قرأ هذا الكتاب أكثر، وفهمه أحسن، ولتعمل على إخفائه عنه قدر المـــستطاع، فـــإن استطاعت أن تقرأ عليه مقدمة الكتاب وخاتمته منتصف الليل، فلا خوف عليهـــا من الضرة طول حياتها.

فإن استيقظ وهي تقرأ عليه المقدمة فالويل لها من ضرات ثلاثة، سيحللن عليها بيتها ويشاركنها زوجها، ينجبن أبناء وبنات أحسن من أبنائها وبناتها، أمـــا إذا استيقظ وهي تقرأ عليه الخاتمة فإني أخشى على الزوجـــة مـــن أن يرميهـــا زوجها بتهمة الجنون، بحجة أنه وجدها تقرأ عليه شعوذة وتردد في أذنه هلوسة والناس نيام.

المؤلف